2272
.6253
.361

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 079639991

٥٫٦٥

ذخائر الفكر الإسلامي

١

مبادئ الإسلام

أبو الأعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية باكستان

الطبعة الثانية «منقحة»

الناشر
مكتبة الشباب المسلم
دمشق - ص. ب ٥٥٦
شارع الحلبوني

al-Mawdūdī, Abū al-Aʿlā

ذخائر الفكر الإسلامي

١

Mabādiʾ al-Islām

مبادئ الإسلام

ألفها بالأردية

ابو الأعلى المودودي

أمير الجماعة الاسلامية بباكستان

نقلها إلى العربية

محمد عاصم الحداد

معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

الطبعة الثانية

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص. ب ٥٥٦

ذخائر الفكر الاسلامي – ٩

الطبعة الاولى : ١٣٧٣ – ١٩٥٤
الطبعة الثانية : ١٣٧٦ – ١٩٥٧

حقوق الطبع محفوظة لدار العروبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

تقديم

هذه رسالة ألّفها الاستاذ السيد أبو الاعلى المودودي ، قبل بضع عشرة سنة ، للقراء عامة ، ولتلاميذ السنوات الاخيرة من المدارس الثانوية ، والسنوات الابتدائيه من الكليات الجديدة خاصة .

والذي جرت عليه عادة المدارس الثانوية والكليات الجديدة عندنا ، في تعليم الطلاب أمور الدين ، أنها تلقنهم طائفة من المسائل الفقهية ، كمسائل الصلاة والزكاة والصوم الخ .. على النحو القديم الجاف ، ولا تهتم الا قليلا بتعريفهم عقائد الدين ، وما يدعمها من الحجج والبراهين ، ومافيها من الحكم والاسرار ، حتى ان الطالب عندما يتخرج من المدرسة أو الكلية لا يكاد يعرف ماهي حقيقة الاسلام ؟ وماذا يريد من الانسان ؟ ولماذا يريده ؟ وما هي علاقة عقائده بالحياة الانسانية ؟ وماهو نفعها إذا قبلها ، أوضررها إذا رفضها؟ وهل يريد الاسلام أن يفرض هذه العقائد على الانسان بدون أي حجة ، أم عنده ماينهض حجة على صحتها وصدقها ؟

ومن الظاهر انه لابد من هذه الامور كلها لفهم الدين وإصلاح العقيدة ،

2272
.6259
.361

فما لم ترسخ هذه الامور في ذهن الانسان ، وما لم يعرفها حق المعرفة ، فانه لا يكاد يتمتع بأي فائدة من تعليم المسائل الفقهية ، ولا يكاد يطيع أحكام الشريعة على الوجه المرضي المنشود .

وكذلك مما لابد منه ، قبل أن يلقن الطالب مسائل الصلاة والزكاة والصوم الخ ، أن يلقى في روعه مافي عبادات الاسلام وأحكام شريعته من الحكم والأسرار والمصالح ، ليستعد لاتباع هذه الأحكام من قرارة نفسه ، وسويداء قلبه . أما طريق أداء الصلاة وتعليم التفاصيل المتعلقة بها ، فانما يفيد من كان مستعداً لأدائها . واما من كان لايرضى بالصلاة أصلا ، ولايريد أداءها ، فأي فائدة تعود عليه اذا شرعت تعلمه طريق اداء الصلاة وتؤنبه على تركها ؟ الحاجة شديدة ، قبل أن تبين للطالب أحكام الصلاة ، إلى أن تبين له ماهي الصلاة في حقيقة أمرها ، ولماذا فرضها الله عليه ، وما نفعها إذا أداها ، أو ضررها إذا أضاعها ؟ ولك أن تقيس على ذلك أحكام الشريعة الأخرى أيضاً .

وقد ألّف الاستاذ المودودي هذه الرسالة ، واضعاً أمام عينه هذه الحاجة الملحة ، ونحا فيها نحواً جديداً لتعليم عقائد الاسلام وأحكام الشريعة ، وهو مختلف إلى حد بعيد عن طريق التعليم القديم ، وأقرب ما يكون لذوق الناس في هذا الزمان .

وقد ظهرت من هذه الرسالة إلى الآن ثلاث عشرة طبعة ـ في كل طبعة نحو ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ نسخة ـ بالاردية ونقلت الى الانكليزية والفرنسية وكثير من لغات الهند وباكستان الأهلية . وها نحن أولاء نتشرف بتقديمها

إلى القراء الكرام بعد التعريب ، عسى أن تنال الحظوة بين الناشئة الاسلامية في بلاد العرب ، وأن تتبعها الرسائل الاخرى من هذه السلسلة ان شاء الله.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

كتبه العاجز الفقير الى رحمة الله

محمد عاصم الحداد

لاهور في { ١٥ شوال سنة ١٣٧٣ هـ / ١٧ يونيو سنة ١٩٥٤ م

معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

الفصل الأول

الإسلام

لماذا سمي الدين بالاسلام ـ معنى كلمة الاسلام ـ حقيقة الاسلام ـ حقيقة الكفر مضار الكفر وعواقبه السيئة ـ فوائد الاسلام .

لماذا سمي الدين بالاسلام :

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات ، قد سميت بأسمائها ، إما نسبة إلى اسم رجل خاص ، أو أمة معينة ، ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها . فالمسيحية مثلاً أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام ، وتسمت البوذية على اسم بانيها بوذا ، واشتهرت الزردشتية باسمها لأن مؤسسها وحامل لوائها كان زردشت . وكذلك ظهرت اليهودية بين ظهراني قبيلة تعرف بيهوذا ، فسميت باليهودية ، وهلم جراً .. إلا الاسلام ، فانه لا ينتسب الى رجل خاص ، ولا الى أمة بعينها ، وانما يدل اسمه ، على صفة خاصة ، يتضمنها معنى كلمة الاسلام . ويظهر من هذا الاسم أنه ماعني بايجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الامم ، وانما غايته أن يحلي أهل الأرض جميعاً بصفة الاسلام ، فكل من اتصف بهذه الصفة ،

من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ؛ ويكون مسلماً، كل من سيتحلى بها في المستقبل .

معنى كلمة الاسلام :

وإذا راجعت معاجم اللغة ، علمت أن معنى كلمة الاسلام هو « الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض » . وقد سمي ديننا بالاسلام لأنه طاعة لله وانقياد لأمره بلا اعتراض .

حقيقة الاسلام :

من المعلوم أن كل شيء في هذا الكون ، منقاد لقاعدة معينة ، وقانون خاص . فالشمس والقمر والنجوم مسخرات تحت قاعدة مطردة ، لاقبل لها بالحراك عنها والخروج عليها ولو قيد شعرة ، والأرض تدور حول قطبها ، ولا يدب في ما قدر لها من الزمن والحركة والطريق ، دبيب التغير والتبدل . والماء والهواء والنور والحرارة كلها مذعنة لنظام خاص . وللجمادات والنباتات والحيوانات ضابطة ، لاتنمو ولا تنقص ولا تحيا ولا تموت الا بموجبها . حتى ان الانسان نفسه اذا تدبرت شأنه ، تبين لك أنه مذعن لضابطة الطبيعة إذعاناً تاماً ، فلايتنفس ولا يحس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقاً للقانون الذي وضعته الطبيعة لحياته . ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الانسان في حركته ، ودمه في دورانه ، ونَفَسُه في دخوله وخروجه ، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماغ والمعدة والرئة والأعصاب والعضلات واليدين والرجلين واللسان والعينين والأنف والاذن . فليست الوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء كلها الا ماقدّرت لها الطبيعة وهي لاتقوم بها إلا حسب ماقررت لهامن الطريق .

فهذا القانون الشامل ، الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون ، من أكبر سيارة في السماء ، إلى أصغر ذرة من الرمل في الأرض هو من وضع ملك جليل مقتدر . فاذا كان كل شيء في السماوات وما بينها منقاداً لهذا القانون ، فان العالم كله مطيع لذلك الملك المقتدر الذي وضعه ، ومتبع لأمره ، ويتبين من هذه الوجهة ، أن الاسلام دين الكون طراً ، لأن الاسلام معناه الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض كما عرفت آنفاً . فالشمس والقمر والأرض مسلمة ، والهواء والماء والنور والظلام والحرارة مسلمة ، والشجر والحجر والأنعام مسلمة ، بل إن الانسان الذي لا يعرف ربه ويجحد وجوده وينكر آياته ، أو يعبد غيره من دونه ، ويشرك به سواه هو مسلم من حيث فطرته التي فطر عليها . وذلك انه لا يولد ولا يحيا ولا يموت ، إلا وفقاً لما وضع الله تعالى من قانون ، لولادته وحياته وموته . وكذلك كل أعضاء جسده ، لا تدين الا دين الاسلام ، لأنها لا تنشأ ولا تكبر ولا تتحرك الا حسب هذا القانون الالهي نفسه بل الحق ان لسانه ، الذي يستخدمه في إبداء آراء الشرك والكفر جهلاً وسفهاً ، لا يدين في نفسه إلا دين الاسلام . وكذلك رأسه ، الذي يكرهه على الانحناء أمام غير الله ، لا يدين إلا دين الاسلام بسائق فطرته التي فطر عليها . وكذلك قلبه الذي يعمره بحب الآخرين من دون الله وإجلالهم جهلاً وسفهاً ، ان هو الا مسلم من لدن فطرته وسجيته . فكل قد أسلم لله وانقاد لقانونه .

اذا ادركت هذا فتعال ننظر في الواقع من وجهة أخرى .

للانسان في حياته جهتان مختلفتان :

الاولى أنه منقاد لقانون الفطرة مجبول على اتباعه .

والاخرى أنه أوتي العقل وقوة الفهم والتأمل والرأي، فهو يسلم بشيء وينكر آخر ، ويحب طريقاً ويكره غيره ، ويضع من تلقاء نفسه ضابطة لمختلف نواحي الحياة ، أو يقبل ماوضعه غيره من نظام للحياة . فهو غير مقيد من هذه الجهة بقانون معين ، كغيره من المخلوقات في هذه الدنيا ، بل قد أوتي حرية الفكر وحرية الاختيار في الرأي والعمل .

هاتان الجهتان المختلفتان توجدان في حياة الانسان كل على حدة .

فمن الجهة الاولى هو مسلم قد جبل على الاسلام وفطر على التزامه شأن غيره من المخلوقات في هذا الكون ؛ وقد عرفت ذلك آنفاً .

ومن الجهة الاخرى هو بالخيار في كونه مسلماً أو غير مسلم . وهذه الخيرة هي التي تجعل الانسان على نوعين :

إنسان يعرف خالقه ، ويؤمن به رباً ومالكاً وسيداً لنفسه ، ويتبع قانونه الشرعي في حياته الاختيارية . كما هو تابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية ، وهذا هو المسلم الكامل الذي قد استكمل إسلامه ، لأن حياته أصبحت الآن الاسلامَ بعينه ؛ وهو قد استسلم — رغبة وطواعية — للذي كان يطيعه وينقاد لقانونه من غير شعور من قبل ؛ وقد أصبح الآن — قصداً وعمداً — مطيعاً لربه الذي كان قبل ذلك يطيعه من غير قصد ولا إرادة ؛ وقد اصبح علمه صادقاً لأنه عرف الله خالقه وبارئه الذي أولاه قوة العلم والتعلم ؛ واصبح عقله ناضجاً ورأيه سديداً لأنه أعمل فكره ثم قضي ألا يعبد إلا الله الذي أكرمه بموهبة الفهم والرأي في الامور ؛ واصبح لسانه صادقاً ناطقاً بالحق لأنه لايقر الآن إلا برب واحد هو الله

تعالى الذي أنعم عليه بقوة النطق والكلام . . . فكأن حياته مابقي فيها الآن إلا الصدق ، لأنه منقاد لقانون الله في ماله الخيرة فيه من أمره وغيره من أحواله ، وامتدت بينه وبين سائر المخلوقات في الكون آصرة التعارف والتآنس ، لأنه لايعبد الآن الا الله الحكيم العليم ، الذي تعبده وتذعن لأمره وتنقاد لقانونه هذه المخلوقات كلها . فهو الآن خليفة الله اي نائب عنه في أرضه . فله كل شيء في الدنيا وهو لله تعالى وحده .

حقيقة الكفر :

وبإزائه إنسان آخر ، ولد مسلماً وعاش مسلماً طول حياته ، من غير أن يشعر باسلامه أو يفطن له ، ولكنه ماأعمل قوته العلمية والعقلية ، ليعرف مَنْ خلقه ، وشق سمعه وبصره . فأنكر وجوده ، واستكبر عن عبادته ، وأبى أن ينقاد لقانونه الشرعي فيما أوتي فيه حق التصرف والاختيار من أمور حياته أو أشرك به غيره ، وأبى أن يؤمن بآياته الدالة على وحدانيته ، وهذا هو الكافر . ذلك بأن معنى الكفر هو الستر والتغطية والمواراة . يقال كفر درعَه بثوبه اذا غطاها به ولبسه فوقها ؛ لمثل هذا الرجل « كافر » لأنه ستر فطرته وغطاها بغطاء من الجهل والسفاهة . وقد علمتَ أنه ما ولد الا على فطرة الاسلام ، ولا تعمل أية جارحة من جوارح جسده الاطبقاً لفطرة الاسلام ، ولا تسير الدنياحوله بأسرها إلا على سنن الاسلام ؛ ولكنه غطى عقله بحجاب مستورمن الجهل والسفاهة ، وتوارت عن بصيرته فطرة الدنياوفطرة نفسه ، فتراه لايستخدم قواه الفكرية والعلمية إلا فيما يخالف فطرته ولا يرى إلا ماينا قضها ، ولا يسعى الا فيما يبطلها .

ولك أن تقدر الآن بنفسك ماارتكس فيه الكافر من الضلال البعيد والغي المبين .

مضار الكفر وعواقبه السيئة :

الكفر جهل ! بل الجهل الحقيقي هو الكفر . . اي جهل أكبر وأدهى من جهل من لايعرف ربه ؟ كيف يشاهد المرء مصنع هذا الكون العظيم دائباً على عمله ، ليل نهار ، ثم لايعرف مَن خلقه ، وأوحى اليه الدأب على عمله ؟ ومن ذا الذي ركب الفحم والهدرجين والاكسجين والآزوت والصوديوم والكلسيوم وغيرها من المواد التي لاحياة لها ولا عقل ، وأخرج منها كائناً عظيماً خطيراً كالانسان ؟ أو ليس مما لايقضى العجب منه ، أن يشاهد الانسان في كل ناحية من نواحي هذا الكون أشياء كثيرة ، تدل بنفسها على مايحتاج اليه صنعها وتحسين منظرها من براعة نادرة منقطعة المثال ، في الهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم ، ثم لايهديه عقله الى معرفة ذلك العزيز الحكيم العليم ، الذي عُني بصنعها وإنشائها ؟ تفكر قليلا : هل يمكن أن ينفتح باب العلم الصحيح في وجه هذا الرجل الذي ضل حتى عن مبدأ العلم ؟ إنه مهما بالغ في التفكر والتفحص وازداد بحثاً وتنقيباً ، فلن يهتدي الى طريق مستقيم متحقق يوصله الى العلم الصحيح في أي شعبة من شعب الحياة لأنه يواجه ظلمة الجهل في أول امره ، وكذلك لايواجه في آخره سواها .

الكفر ظلم ! بل أعظم الظلم وأشنؤه هو الكفر . . ذلك أن معنى الظلم ان تضع الشيء في غير محله اللائق به وتستعمله إكراهاً فيما لاتلتئم به فطرته . وقد عرفت ان كل مافي السموات والأرض من شيء مذعن لأمر الله ، مفطور

على فطرة الاسلام، حتى إن الانسان وجسده بكل مايشتمل عليه من الأعضاء لم يولد إلا على هذه الفطرة نفسها. نعم، لاشك أن الله قد أعطى الانسان جانباً من حق التصرف في هذه الأعضاء. ولكن الذي تقتضيه فطرتها ألا يتصرف فيها إلا حسب مرضاة خالقها. فالذي يكفر بالله، إنما يتصرف في أعضاء جسده على وجه لا يوافق فطرتها. تراه يعمر قلبه بظلمات الاجلال والحب والرهبة لغير الله، مع أن الفطرة التي فطر عليها قلبه تطالبه بأن يعمره بنور الاجلال والحب والرهبة لله الصمد وحده. وكذلك يستخدم سائر أعضاء جسده، وكل ماتحت يده من شيء في هذا الكون، فيما ينقض مرضاة الله تعالى، مع أن الطبيعة التي جبلت عليها هذه الأعضاء والاشياء تقتضيه ألا يستخدمها إلا طبقاً لما جاء به قانون الرب تعالى. فقل لي بالله من أظلم ممن يقضي حياته ظالماً لكل شيء حتى لنفسه في هذه الدنيا ؟

ليس الكفر بظلم فحسب، بل هو بغي وعدوان وجحود وكنود أيضاً. أو ترى الانسان يملك شيئاً مما يجده بين يديه ؟ من ذا الذي خلق عقله ودماغه ؟ أهو نفسه أم الله عز وجل ؟ ومن ذا الذي خلق قلبه ولسانه، وعينيه وأذنيه، ورجليه ويديه، وسائر أعضاء جسده ؟ أهو نفسه أم الله تبارك وتعالى ؟ ومن ذا الذي أحسن خلق هذه الأشياء، وجعلها نافعة للانسان، ومكنه من استخدامها والتمتع بها ؟ أهو نفسه أم الله سبحانه وتعالى ؟

لابد أن يكون جوابك عن هذه الأسئلة ان هذه الأشياء كلها لله وحده، وهو الذي خلقها وأحسن صورها، وهو مالكها وهو الذي أنعم بها على الانسان فاذا كانت هذه هي الحقيقة، وهي هكذا من غير شك، فمن يكون أكثر ظلماً وأمعن في الغي والعدوان ممن يستخدم عقله

في التفكير فيما يناقض مرضاة الله تعالى ويعمر قلبه بأفكار تجلب عليه سخطه ، ويكره لسانه وعينيه ويديه ورجليه على العمل بما ينافي أحكام الله وأوامره ؟ إنك تحكم بالكنود على عبدٍ نشأ على رزق سيده ، ثم لايوفيه ما عليه من حقه ، وكذلك ترمي بالبغي والخروج على الحكومة موظفاً يستخدم ما بيده من حق التصرف ، في وجوه تخالف مصالح الحكومة ، وتنسب إلى الكفران من يتنامى ما لصاحبه عليه من معروف ... ولكن ماهي حقيقة كفران الانسان وبغيه وتناسيه لما عليه من معروف لانسان آخر مثله ؟من أين جاء هذا الانسان بما عنده من الرزق حتى يتفضل به على غيره ؟ أليس الله تعالى وحده هو الذي آتاه قوة السلطة والأمر ؟ وأنىّ للانسان أن يمن على أخيه ويصنع اليه معروفاً ؟ أليس الله تعالى هو الذي مكنه من كل ذلك ؟ ! إن أكبر حق على الانسان في هذه الدنيا هو ما يجب عليه نحو والديه . ولكن من هذا الذي ألقى في قلوب الوالدين حب الاولاد والحنو عليهم ؟ أم من هذا الذي جعل الأم رحيمة بمن حملته كرهاً ووضعته كرهاً ؟ أم من هذا الذي ألقى في روع الوالد أن ينفق راضياً ، ماكسبه بعرق جبينه على مضغة حقيرة ويضحي في سبيل تربيتها وتعليمها بكثير من أوقاته وأمواله ورفاهيته ؟

فقل لي بالله هل هناك كفرٌ أفظع من كفر من لايؤمن بالله ، ويأبى ان يقر له بالألوهية والربوبية ، ويعرض عن طاعته وامتثال أمره ؟وهل يمكن ان تجد بغياً أبشع من بغيه ، وغدراً أشنع من غدره ، وكنوداً أغلظ من كنوده ؟

ولا تظنن ّ ان الانسان يجلب الى الله شيئاً من الضرر اذا كفر به .. كيف والله تعالى ذو ملك عظيم لم يُعرف بعد أقصاه من أدناه على كل ما بذل الانسان من الجهود المتتابعة الشاقة واستعمل من الآلات الضخمة النظارة لهذا الغرض ، وله سبحانه وتعالى تسجد الارض والشمس والمريخ وغيرها من السيارات الكبيرة التي لا يأتي عليها الاحصاء فتراها ككرات صغيرة حقيرة في مملكته ، وله عز وجل خزائن السماوات والارض من غير مشارك ولا منازع ، وهو الصمد الجواد الكريم الذي يفتقر اليه الجميع وهو لا يفتقر الى أحد . فأنى ّ للانسان ، هذا المخلوق العاجز الحقير الواهن ، أن يجلب الى الله شيئاً من الضرر اذا كفر به ؟ إنه إن آمن فلنفسه وان كفر فعليها .

ومن نتائج الكفر والعصيان المحتومة أن يكتب الخسران والخيبة للانسان فلا يهتدي الى صراط العلم المستقيم أبداً ، لان العلم الذي لا يعرف ربه ، أنى ّ له أن يعرف غيره معرفة صحيحة ؟ وكذلك لابد أن يسلك عقلُه طرقاً معوجة في كل شأن من شؤون حياته ، فان العقل الذي لا يهتدي الى معرفة خالقه ، أنى ّ له ان يعرف غيره معرفة سليمة ؟ وكذلك لا بد أن يهيم على وجهه ويبوء بالخيبة بعد الخيبة في كل أمر من أموره وأن تفسد عليه أخلاقه وثقافته ، وعشرته ومعيشته ، وحكومته وسياسته ، ويعيث في الأرض مفسداً ، ليسفك الدماء ، ويعبث بحقوق الناس ، ويذيقهم ألواناً من الظلم والقسوة . فهكذا ينغص على نفسه الحياة بأفكاره الفاسدة وأعماله المنكرة . هذا في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة ، فيقوم في وجهه كلُّ شيء – صغير أو كبير – اعتدى عليه في الدنيا

ويشهد عليه ... ففي محكمة الله العادلة ، يرفع القضية عليه عقلُه وقلبه ، وعيناه وأذناه ، ويداه ورجلاه ، وسائر أعضاء جسده : « رباه ! إن هذا الظالم خرج عليك في الحياة الدنيا ، وأعرض عن ذكرك ، واستخدَمنا كرها وقسراً في معصيتك » . وفي هذه المحكمة العادلة ، التي لابيع فيها ولا خلة ولا شفاعة ، تستعدي عليه تلك الارض التي مشى وسكن على وجهها عاصياً لله تعالى ، وتلك الأموالُ التي اكتسبها بطرق محرمة وأنفقها في سبل محرمة ، وتلك الأشياء التي تصرَّف فيها تصرُّف الغاصب عدواناً وظلماً ، وتلك الادوات والقوى التي استخدمها في هذا الظلم والعدوان على كراهية منها . والله سبحانه وتعالى – ومن أحسن من الله حكماً – يغيث جميع هؤلاء ويقطع لها الحق الموفى بإزاء هذا الظلم العاتي ، ويذيقه عذاب الهون والخزي ، جزاء ظلمه وعصيانه .

فوائد الاسلام :

هذه هي مضار الكفر وعواقبه . فتعال ننظر الآن في مايعود علينا به الاسلام من الفوائد اذا آثرناه ورضينا باتباعه .

قد عرفت من البيان السابق أن هذا الكون فيه من الآيات والعلامات المبثوثة في كل ناحية مايدل على ألوهية الله وربوبيته . فهذا المعمل الكوني العظيم الذي نراه سائراً سيراً مطرداً ، مذعناً لنظام شامل وقانون ثابت ، يشهد بلسان حاله أن خالقه ومدبر أمره حاكم جليل ، ذو سلطة وقوة عظيمة ، لايخرج عن نفوذه شيء في الارض ولا في السماء . وكذلك عرفت أن الانسان من فطرته أيضاً كسائر الكون أن يطيعه ، فتراه يطيعه ليلاً ونهاراً عن غير شعور منه ، وذلك أنه من المستحيل على الانسان أن يبقى حياً اذا خالف قانون الطبيعة .

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب للانسان جانباً من الحرية في إرادته ، وفضّله على العالمين بملكة العلم ، وقوة الفكر ، والتمييز بين الخير والشر . والانسان وعلمه وعقله وقوة تمييزه خاضع لامتحانٍ في هـذه الحرية ، وهو دائماً بعين خالقه ينظر كيف وفيم يستعمل هذه الحرية ؟ والانسان لم يُجبر أن ينهج في هذا الامتحان منهجاً معيناً ، ولو أنه أجبر لبطلت غاية الامتحان . وذلك أمر واضح لا إشكال في فهمه ، لأنه اذا جاءك في ورقة الامتحان سؤال أُجبرت عليه بجواب معين معلوم ، فأي فائدة تأتي من هذا الامتحـان ؟ الحق انه لن تظهر كفاءتك على الوجه الصحيح إلا اذا كنت مخيراً تخييراً تاماً في كل جواب تريده ، فان كان جوابك صحيحاً ، نجحت في الامتحان وفتح في وجهك باب الرقي والكمال في المستقبل . وإن كان جوابك غير صحيح أخفقت في الامتحان وأُوصد باب الرقي في وجهك . فهكذا قد متع الله الانسان بالحرية في امتحانه له ، وخيّره بما يشاء من طريق للسير في حياته .

فرجل لا يعرف فطرة نفسه ولا فطرة هذا الكون ، ويخطىء في معرفة خالقه وماله من الصفات ، ويختار طريق المعصية والبغي ، ولا يُحسن الانتفاع بما أُوتي من الحرية في إرادته ، يخفق إخفاقاً مبينـاً ، في امتحان علمـه وعقله ، وقوة تمييزه بين الخير والشر ، وشعوره بالواجب ، وشاهد على نفسه أنه رجل من أسفل السافلين من كل وجهة ، وينبغي أن يكون مآل أمره كما عرفت آنفاً .

ورجل آخر قد نجح في هذا الامتحان : أعملَ فكره ، واستفاد مما أُوتي من العلم والعقل استفادة صحيحة ، فعرف خالقه وآمن به ، رغم كونه غير

مكره على ذلك . وكذلك ماأخطأ في التمييز بين الخير والشر ، واختار الخير باستقلال رأيه ، مع أنه ما كان هناك في وجهه شيء يدرؤه عن الميل الى الشر لو أراده . وتفطن لفطرته ، وعرف ربه ، وآثر طاعته على كونه مخيراً بين الطاعة والمعصية . فأي شيء انجحه في هذا الامتحان وابلغه مرامه؟ ذلك أنه أحسن استعمال عقله ، والاستفادة من عينيه وأذنيه ودماغه ، وقضى من سويداء قلبه ألا يتبع من الأقوال والأعمال الا الصحيح . وكذلك جاء ببرهان على كونه عارفاً للحق بمعرفته اياه وعلى كونه متبعاً له بالاستسلام له فعلاً.

أي عجب إذا حظي بالنجاح في الدنيا والآخرة رجل ، قد تحلى بمثل هذه الصفات العالية ؟ فهو لايختار في ميدان العلم والعمل إلا طريقاً صحيحاً مستقيماً ، لأن الذي عرف ربه وعرف صفاته ، قد عرف مبدأ العلم ومنتهاه . لايمكن أن يتخبط مثل هذا الرجل في الطرق الملتوية المضلة في حياته ، لأن أول خطوة خطاها ، إنما خطاها على علم وبصيرة ، ولن تخفى عليه غايته التي يريد الوصول اليها ، فتراه ينظر في ملكوت السماوات والأرض ، ويحاول معرفة أسرار الكون بالطرق الفلسفية ، ولكنه لايضل في ظلمات الشك والارتياب ، ويستخدم العلوم التجريبية (Science) في معرفة قوانين الطبيعة ، واستخراج ما في الكون من الخزائن الخافية ، وكشف ماأودع الله تعالى من القوى في هذه الدنيا وفي الناس أنفسهم ، واختراع أحسن الطرق للانتفاع بما في السماوات والأرض ، يقوم بكل ذلك ، ويستقدح فيه قوته الفكرية والعملية ، ولكن تقواه لله تعالى ، وخشيته للقيام بين يديه يوم القيامة ، تحجزانه عند كل خطوة عن سوء استعمال هذه العلوم ، ولن تسوّل له نفسه أبداً ، في أي مرحلة من مراحل سيره ، أنه مالك

لهذه الأشياء ، أو أنه قد انتصر على الطبيعة ، فيمكنه ويجوز له ، أن يستخدم هذه العلوم في منفعته الذاتية وفي تسخير الدنيا وتدويخ بلادها وفي قذف الرعب في قلوب الناس باهلاك الحرث والنسل وسفك الدماء . فما كل ذلك الفساد الا عمل عالم (Scientist) كافر . أما العالم المسلم ، فكلما ازداد انتصاراً على العلوم التجربية ، ومهارةً فيها ، ومعرفة بأسرار السماوات والأرض ، ازداد ايماناً بالله ، وايقاناً بتوحيده ، وشكراً لنعمته ، واعتقاداً أن ربه مامكنه من أسباب هذا الكون الا ليكون خادماً لعباده ، ويسعى فيما يعود بالخير عليه وعلى الناس أجمعين ، فان ذلك هو الشكر الحقيقي لله تعالى على ماأولاه من النعم .

وكذلك لايتخلف المسلم عن الكافر ، في تحقيقه واجتهاده في التاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وما اليها من العلوم والفنون الأخرى ، ولكن شتان مابين نظريهما : يدرس المسلم كل علم من هذه العلوم بنظر صائب ، ولغاية صالحة ، وينتهي به تحقيقه الى نتيجة سليمة .. ففي التاريخ يتعظ بتجارب البشر الماضية ، ويستقرىء الاسباب الحقيقية لرقي الأمم وانحطاطها ، ويجتهد في معرفة ما كان نافعاً صحيحاً في مدنياتها وثقافاتها ويستفيد ، من أحوال رجالها الصالحين في أعمالهم واقوالهم ، ويتجنب كل ما اهلك هذه الامم وقطع دابرها من أسباب السوء والضعف .

وفي الاقتصاد يختار لاكتساب الثروة وانفاقها طرقاً لا يقتصر نفعها على بعض البشر دون بعض ، بل يشمل نفعها جميعَ أهل الأرض .

وفي السياسة يكون همه كله منصرفاً الى أن تسود الأرض مبادىء الأمن والسلام والعدل والخير والشرف والمروءة ، فلايستبد برقاب الناس ولا يستذلهم ، ولا يستعبدهم فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات ؛ وإلى أن تعتبر السلطة

وأدوات الحكم والسيادة وديعة من الله، تستعمل في إسعاد عباد الله وفلاحهم.

وفي القانون تكون وجهة نظره ان يُقرّر لجميع البشر حقوقهم وواجباتهم على غاية من العدل والأمانة، ولا يُظلم احد من أي وجه من الوجوه.

والصدق والأمانة والعفاف وخشية الله واتباع الحق، كل اولئك مزاج أخلاق المسلم. فهو لا يعيش في الدنيا، الا وهو يعلم ان الله تعالى هو رب هذا الكون، ومالك كل مافيه من شيء، وأن كل ماعنده وعند الناس هو من عند الله، وأنه لا يملك شيئاً حتى نفسه وقواه الجثمانية، وأن كل شيء عنده أمانة من الله لا يحل له ان يتصرف فيها الا حسب مرضاته تعالى، وأن الله سيسترد منه هذه الامانة ويحاسبه عليها حساباً دقيقاً في يوم لاريب فيه.

فارجع الى نفسك وتفكر قليلًا في أخلاق مثل هذا الرجل: يطهر قلبه من الظنون الباطلة، وذهنه من الهم بالسوء، ويغض من طرفه عن النظرة الخاطئة، ويصم سمعه عن الفاحشة، ويحفظ لسانه عن النطق بشيء يخالف الحق، ويؤثر أن يموت جوعاً على أن يملأ بطنه برزق حرام، ولا يبسط يده بالظلم والاعتداء على حق غيره، ولا يطأ بقدمه طريق السيئة، ولا يطأطيء رأسه أمام الباطل ولو صلب وقطع جسده تقطيعاً، ولا يحقق أملًا من آماله ولا حاجة من حاجاته عن طريق الشر والظلم والعدوان، وأعز شيء عنده هو الحق والصدق والأمانة، لا يضن في سبيلها بشيء من نفسه أو ماله، وأبغض شيء في نظره هو الظلم والكذب والخيانة لا يرضى بانتصارها واختيار سبيلها خوفاً على نفسه من مضرة أو

رجاءً في منفعة .

فمثل هذا الرجل هو الذي يفوز بفلاح الدنيا أيضا .

نعم ! ليس في الدنيا رجل أكثر منه عزاً وشرفاً وفضيلة ورفعة ، لأن رأسه لا يتطأطأ ، ويده لا تمتد ، أمام أحد غير الله ، فأنى للذل والهوان أن تدركه أسبابهما .

وليس في الدنيا رجل أكثر منه قوة وإقداماً وجرأة ، لأنه لا يخاف غير الله ولا يعلق رجاءه بسواه ، فأي قوة تقدر أن تنكبه صراط الحق وأي ثروة تقدر ان تشتري متاع ايمانه ؟

وليس في الدنيا رجل أغنى منه وأكثر ثراء ، لأنه ليس بكلب الدنيا ، ولا بحريص على حطامها الفاني ، ولا بمتبع لشهواته النفسية ، وهو يقتنع بما يكسبه بسعيه المشروع ، ولا يمد عينه إلى ثروة محرّمة ، ويرفضها بكل احتقار واستخفاف ولو حشدت اليه منها القناطير المقنطرة ... هذه هي ثروة القناعة والطمأنينة ولا يمكن ان تكون في الدنيا ثروة أغلى منها قيمة .

وليس في الدنيا رجل احب إلى قلوب الناس ، واعز في نظرهم منه ، لأنه يؤدي الى كل منهم حقوقه كاملة ، ولا يبخس منها شيئاً ؛ ويحسن اليهم ، ولا يسيء الى أحد منهم ؛ ويسعى في سعادتهم ، ولا يبتغي منهم جزاء ولا شكوراً ... كل ذلك مما يجذب اليه قلوب الناس ، ويضطر كلاً منهم الى حبه واحترامه واجلاله .

وليس في الدنيا رجل يحوز في نفسه ، ثقة الناس واعتمادهم اكثر منه ، لأنه لا يخون اماناتهم ، ويعاملهم بالصدق والحسنى ، ويوفي لهم كل ما يعاهدهم عليه ، ولا يبتغي عن الصدق والامانة بدلاً في أي شأن من

شؤونه ، موقناً من نفسه ان الله ينظر اليه ، حتى في احواله التي لا يراه فيها احد في هذه الدنيا . فلا تسل عن مبلغ حب الناس له ، واعتمادهم عليه ، ورجوعهم اليه في كل امر من امورهم .

اذا عرفت كل هذا عن سيرة المسلم واخلاقه في الدنيا ، استيقنت نفسك انه من المستحيل ان يعيش المسلم في الدنيا ذليلاً مهاناً مغلوباً على امره ، بل لابد ان يكون في حياته ، عزيز الجانب رفيع الرأس ، لأن الصفات التي يحليه بها الاسلام لا يمكن ان تغلبها قوة من قوة الدنيا ابداً .

هذا ما للعبد المسلم في حياته الدنيا ؛ اما في الآخرة ، فسيتغمده الله برضوانه ، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، وله فيها كل ما تشتهيه نفسه ، جزاء على ادائه حق الامانة التي أودعها ، ونجاحه في امتحانه في الدنيـــا . وذلك هو الفوز المبين الابدي ، يتمتع به العبد المسلم في الدنيا والآخرة .

هذا هو الاسلام . دين الانسان المفطور عليه . وهو لا يختص بأمة دون امة ، ولا بقطر دون قطر ، ولا بزمن دون زمن . كان يدين به كل من عرف الله ، واتبع قانونه ، وسلك صراطه المستقيم ، في اي زمن أو امة أو قطر ، سواء أسمّى دينه بالاسلام أو بغيره من الالفاظ بلسان قومه .

الفصل الثاني

الايمان والطاعة

حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة ـ معنى الايمان ـ وسيلة الحصول على العلم واليقين ـ الايمان بالغيب .

حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة :

قد عرفت ان الاسلام ، هو طاعة الله تعالى ، والانقياد لأحكامه وأوامره . ونريد أن نبين لك الآن ، أن الانسان لايستطيع ان يطيع الله ، ويتبع قانونه ، ويسلك سبيله إلا إذا علم عدة امور ، وبلغ علمه بها مبلغ اليقين .

ان اول مايجب على الانسان بهذا الصدد أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى ، فانه اذا لم يكن موقناً بوجوده ، فكيف يطيعه ويتبع قانونه ؟

وكذلك يجب عليه ان يعرف صفات الله تعالى ، فانه إذا لم يعرف ان الله واحد لاشريك له في ألوهيته ، فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومد يده أمام غير الله ؟ وكذلك إذا لم يكن موقناً بأن الله سميع عليم بصير

بكل شيء ، فكيف يمسك نفسه عن معصيته والخروج على أمره ؟ فيتضح من كل ذلك ، أن الانسان لايمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها ، في أفكاره ، وأعماله ، وأخلاقه ، لسلوك صراط الله المستقيم ، ما دام لا يعرف صفات الله تعالى ، ولا يحيط بها علماً صحيحاً كاملاً . ولا يكفي أن يكون هذا العلم علماً فحسب ، بل ينبغي أن يكون متمكناً من أعماق قلبه ، ليأمن قلبه من الظنون الخاطئة ، وحياته من العمل بما يخالف علمه .

ثم يجب على الانسان ،أن يعرف ماهو الطريق الصحيح ، لقضاء الحياة في هذه الدنيا ، وفقاً لمرضاة الله تعالى ، وأي شيء يحبه الله تعالى كي يختاره ، وأي شيء يبغضه كي يبتعد عنه . ولا بد ـ لهذا الغرض ـ أن يكون الانسان على معرفة بقانون الله ، وأن يكون موقناً بكون هذا القانون من عند الله تعالى ، وبأنه لن ينال وجه ربه ، حتى يكون متبعاً لهذا القانون اتباعاً كاملاً في حياته ؛ فإنه اذا لم يعرف هذا القانون أصلا فكيف يتبعه في حياته ؟ وإنه اذا لم يكن علمه بهذا القانون قد بلغ درجة اليقين ، أو إذا كان يحسب في نفسه ، أنه من الممكن أن يكون في الدنيا، قانون آخر مثل هذا القانون في صحته وسداده ، فكيف يواظب على اتباعه مواظبة صحيحة ؟

ثم على الانسان أن يكون على علمٍ من مآل أمره إذا اختار معصية الله تعالى على طاعته ، ولم يسلك صراطه المستقيم ، أو إذا واظب على طاعته واتبع قانونه في حياته . ولهذا الغرض لابد له أن يكون موقناً بالحياة الآخرة ، وبقيامه بين يدي الرب تعالى يوم القيامة ، ومجازاته له على

أعماله ، ان خيراً فخير وإن شراً فشر . والذي لاعلم له بالحياة الآخرة ، سواء في نظره الطاعة والمعصية لافرق بينهما ، ولايكاد يميز بين نتائجها المختلفة ، ويظن أن الذي يطيع الله والذي يعصيه سواء مصيرهما بعد الممات . فكيف يرجى من مثل هذا الرجل أن يكفّ نفسه عن اقتراف الذنوب مادام لايخاف مضرتها على نفسه في حياته الدنيا ، أو يصبر نفسه على طاعة الله وشدائدها ومقتضياتها ؟ لايمكن أن يكون الانسان متبعاً لقانون الله بمثل هذه العقيدة. وكذلك لايمكن أن يواظب على طاعة الله واتباع قانونه رجلٌ ، على علمٍ بالحياة الآخرة وقيامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، ولكن علمه هذا لم يبلغ درجةَ اليقين ، فان الانسان لا يكاد يثبت على شيء بالشك والتردد ، وانما يمكنه أن يواظب على أمرٍ ، ويثبت نفسه على طاعته إذا كان على يقين تام من نفعه لنفسه . وكذلك لايستطيع أن يُبعد نفسه عن أمرٍ ، إلا أن يكون موقناً بمضرته لنفسه .

يظهر من هذا كله ؛ أنك إذا أردت أن تسلك طريقاً من الطرق ، فلا بد لك أن تكون على معرفة من نتيجته وغايته التي ينتهي بك إليها . وينبغي أن تكون معرفتك هذه بالغةً درجة اليقين والوثوق .

معنى الايمان :

فالذي عبرنا عنه آنفاً بالعلم والمعرفة واليقين هو « الايمان » ، وذلك هو معنى كلمة الايمان بعينه . فكل من عرف توحيد الله ، وصفاته الحقيقية ، وقانونه ، ومجازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة ، ثم كان موقناً بكل ذلك من قرارة نفسه ، هو « المؤمن » . ومن نتائج الايمان أن يكون الانسان مسلماً ، أي مطيعاً لله ، ومتبعاً لقانونه .

ولعلك قد عرفت من هذا بنفسك ، ان الانسان لايمكن أن يكون مسلماً إلا إذا كان مؤمناً . فصلة الايمان بالاسلام كصلة البذرة بالشجرة، فانه لا تنبت الشجرة الا بالبذرة ، وان كان من الممكن أن يلقي البذر في الأرض فلا تنبت الشجرة ، أو تنبت ولكن بشيء من النقص ، إما لكون الأرض مجدبة ، أو لشيء من الفساد في الجو . فكذلك لايمكن أن يكون الانسان مسلماً إذا لم يكن الايمان في قلبه ، وان كان من الممكن أن يكون الايمان في قلبه ثم لا يكون اسلامه كاملًا ، إما لضعف في عزمه ، أو لنقص في تعليمه وتربيته ، أو تأثير بيئته .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان الانسان على أربع درجات باعتبار هذين الأصلين : الايمان والاسلام :

١ ـ الذين يؤمنون بالله ايماناً يجعلهم مطيعين له ، متبعين لأحكامه اتباعاً كاملًا ، يحذرون ما قد نهى عنه ، كما يحذر الانسان الامساك بجمرة متقدة من النار في يده ويسارعون إلى العمل بما فيه مرضاته ، كما يسارع الانسان إلى كسب الأموال . فهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

٢ ـ الذين يؤمنون بالله ، ولكن لايجعلهم إيمانهم مطيعين له ، متبعين لاحكامه اتباعاً كاملًا . فهؤلاء وإن كان إيمانهم لم يبلغ درجة الكمال ، ولكنهم مسلمون على كل حال ، يعاقبون بقدر معصيتهم ، كأنهم بمنزلة المجرمين ، وليسوا بمنزلة البغاة المتمردين ، لأنهم يعترفون للملك بملكه ويخضعون لقانونه .

٣ ـ الذين لا يؤمنون بالله ، ولكنك تراهم ظاهراً يأتون بأعمال تشابه أعمال المسلمين ؛ فهم البغاة في حقيقة الأمر ، وأما أعمالهم التي تراها صالحة

في الظاهر ، فليست بطاعة لله ، ولا اتباع لقانونه ، فلا عبرة بها . ومثلهم كمثل رجل لا يعترف للملك بملكه ، ولا يخضع لقانونه ؛ فاذا صدرت عنه بعض أعمال لاتخالف قانون الملك ، لايحكم عليه بكونه وفياً للملك ومطيعاً لقانونه ، بل هو عاص لأمره خارج على قانونه .

٤ ـ الذين لا يؤمنون بالله ، ويأتون أيضاً بأعمال سيئة مخالفة لأحكامه وقانونه ، فهم شر الناس لأنهم بغاة ومفسدون بآن .

فالظاهر من هذه القسمة ان الايمان هو الذي ينحصر فيه نجاح الانسان ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، ولا يتولد الاسلام ـ كاملاً أو ناقصاً ـ الا من بذر الايمان . فحيث لا يكون الايمان يكون الكفر ، والكفر هو ضد الاسلام أي الخروج على أمر الله تعالى باختلاف درجاته .

وسيلة الحصول على العلم واليقين :

قد عرفت انه لابد من الايمان للطاعة ؛ ولعلك تسائلني الآن : فما هي الوسيلة الى الحصول على العلم الصحيح ، واليقين المحكم ، بصفات الله تعالى وقانونه المَرْضِيّ ، والحياة الآخرة ؟.

قد بينا لك في ما سلف ، أن آثار رحمة الله ومعالم بديع صنعه ، منبثة في كل ناحية من نواحي هذا الكون ، وهي تشهد بلسان حالها ، أنه لم يُعْنَ بايجاد هذا الكون الا إله واحد ، وهو الذي يسيره ويدبر شؤونه ؛ وكذلك تتجلى لكل من ينظر في هذه الآثار ، صفات الله تعالى كلها ، بأتم مظهرها ؛ فأي صفة من صفات الحكمة ، والعلم ، والابداع ، والعفو والكرم ، والرحمة ، والربوبية ، والقهر ، والغلبة ، وما إليها من صفاته تعالى ، لا تلوح من أعماله وبدائع صنعه في هذا الكون ؟ ولكن الانسان قد

أخطأ عقله وكفاءته عامة ، في مشاهدة هذه الآثار والتأمل في حقيقتها . وهذه الآثار ماثلة أمام عين الانسان ، ولكن على رغم شهادتها بتوحيد الله تبارك وتعالى في جميع صفاته ، فقد قال بعض الناس إن الاله إلاهان ! وقال بعضهم ان لهذا الكون ثلاثة آلهة ! واتخذ بعضهم لنفسه آلهة لاتحصى ! ووزع بعضهم الالوهية بين آلهة متعددة ، فقال ان للمطر إلهاً وللنار إلهاً .. وجعل لكل قوة من قوى هذا الكون إلهاً خاصاً بها ، ثم جعل على رأس الجميع إلهاً أكبر ، يلجأون إليه ويقتدون بأمره ! وهكذا خبط العقل البشري في إدراك ذات الله تعالى ومعرفة صفاته خبط عشواء ، ليس هذا بمقام تفصيله .

وكذلك جاء مختلف الناس بظنون خاطئة ، وأفكار كاذبة عن الحياة الآخرة ، فمنهم من قال : ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ومنهم من قال : ان الانسان تتكرر حياته وموته مرة بعد مرة في هذه الدنيا ، ولا ينال جزاء أعماله إلا فيها ..

أما القانون الذي يجب على الانسان ان يواظب عليه ، لقضاء حياته حسب مرضاة الله تعالى ، فأنى للانسان ان يضعه بنفسه ، أو يدركه بعقله اذا كان لم يستطع ان يعرف ذات الله تعالى ويعرف صفاته بنفسه ؟.

ومهما كان عقل الانسان ناضجاً ، وكان حائزاً على أعلى درجة في الكفاءة العلمية ، فانه لا يستطيع ان يرى في هذه الامور رأياً أو مايشبه الرأي ، الا بعد تجارب سنين عديدة ، وتأمل طويل ؛ بل إنه لايمكن ان يكون واثقاً من نفسه حتى بعد كل ذلك ، ولا أن يدعي أنه قد عرف الحق وأحاط به علماً تاماً . ولاشك ان الطريق المعروف لاختبار عقل الانسان

وعلمه ، أن يُترك وشأنه بدون اي هداية من فوقه، ليقرع جده، وينشد الحق والصدق لنفسه بنفسه ، فيكون النجـــاحُ حظَّ منْ ساعده سعيه وكفاءته ، والخسرانُ نصيب من فاته سعيه وكفاءته. ولكن الله عز وجل أراد بعباده الرحمة ، ومـا ابتلاهم بمثل هذا الاختبار العسير ، فبعث اليهم من أنفسهم رجالاً ، وهب لهم علماً صحيحاً بصفاته ، وعلمَّهم الطريق الذي يمكن ان يقضي به الانسان حياته في الدنيـا وفقاً لمرضاة ربه ؛ وكذلك أعطاهم العلم الصحيح بالحياة الآخرة وأمرهم ان يبلغوا علمَه الناسَ جميعاً. فهؤلاء هم رسل الله وأنبياؤه ؛ والطريق الذي نالوا به هـذا العلم من الله تعالى هو الحي ، والكتاب الذي فيه هـــذا العلم يقال له كتاب الله أو كلامه . فلا اختبار الآن لعقل الانسان وكفاءته ، الا من حيث إيمـانه بالرسول أو كفرانه بعد النظر الى حياته الطيبة وهدايته السامية ؛ فمن كان مستعداً لمعرفة الحق واتباعه ، صدق بالحسنى ، وآمن بمن جاء بها ؟ ونجـح في اختباره . وأما من كذب بالحسنى ، واستغنى عمن جاء بها ، فقد أضاع من نفسه أهلية معرفة الحق والصدق وقبولهما ، وذلك مـاجعله يخيب في اختباره . وصده عن تلقي العلم الصحيح بالله وقانونه والحياة الآخرة .

الايمان بالغيب :

إنك اذا كنت لاتعرف شيئاً ، تبحث عن رجل يعرفـه ، ثم تعمل بقوله وتنزل على رأيه . فاذا مرضت ، فانك لاتعالج نفسك بنفسك ، بل تراجع الطبيب ، فان كان هذا الطبيب محنكاً في فنه ، حائزاً فيه شهـادة عالية ، ورأيته قد شفي على على يده كثير من النـاس ، آمنت أن لديه الكفاءة التي يحتاج اليها علاجك . فبنـاءً على هذا الايمان ، لاتتناول إلا

الدواء الذي يصفه لك هذا الطبيب ، وتجتنب كل ماينهاك عنه . و كذلك تؤمن بالمحامي وتطيعه في أمر القانون ، وتؤمن بالاستاذ في أمر التعليم وتصدق كل ما يبيّنه لك . و كذلك عندما تريد التوجه الى مكان لاتعرف الطريق الموصل اليه ، تؤمن بمن يعرفه ، وتصدق بقوله ، وتسلك الطريق الذي يبينه لك . وهكذا شأنك في كل أمر من امور الدنيا .. فذلك هو الايمان بالغيب .

فالايمان بالغيب معناه أن ترجع في معرفة مالا تعرفه الى من يعرفه ، ثم تصدقه في قوله ، انك لا تعرف ذات الله تعالى ولا صفاته ، ولا تعلم أن ملائكته يسيّرون شؤون الكون بأمره ، ويحيطون بالناس من كل جهة . ولا تعرف ماهو الطريق الصحيح لقضاء الحياة وفقاً لمرضاته تعالى ، ولا علم لك بالحياة الآخرة وما يحصل فيها للعباد ، فجميع هذه الامور وأمثالها انما تنال علمها عن رجل ، تطمئن الى صدقه وأمانته وعفافه وتقواه في جميع شؤون حياته ، وتختبره في اعماله النزيهة وأقواله الحكيمة ، فتسلم بأنه لا يقول الا الحق ، وأن جميع اقواله جديرة بأن تقبلها وتؤمن بها . فهذا هو ايمانك بالغيب ، ولا بد لك منه ان أردت طاعة الله تعالى ، والعمل بما يحبه ويرضاه ، فانه لايمكن ان تتلقى العلم الصحيح بهذه الامور الا بواسطة الرسول ولا يمكن ان تهتدي الى صراط الاسلام المستقيم وتسلكه بدون هذا العلم الصحيح .

الفصل الثالث

النبوة

حقيقة النبوة – معرفة النبي – طاعة النبي – الحاجة إلى الايمان بالنبي – موجز تاريخ للنبوة – نبوة محمد صلى الله عليه وسلم – ثبوت النبوة المحمدية – ختم النبوة – الدلائل على ختم النبوة .

إنك قد عرفت من الفصل السابق ثلاثة أمور :

أولاً : أن الانسان محتاج إلى العلم الصحيح بذات الله تعالى ، وصفاته وطرقه المرضية ، وحساب الآخرة ومجازاتها لطاعة الله وامتثال أوامره وأحكامه ، وأنه ينبغي أن يكون علمه هـــذا قد بلغ من قوته وإتقانه درجة اليقين والوثوق .

ثانياً : أن الله تعالى ، ما كلف عباده أن ينالوا هذا العلم بكدهم ، بل قد اصطفى منهم رجالاً – وهم أنبياؤه – وأعطاهم هذا العلم وأمرهم أن يبلّغوه سائر عباده في الأرض .

ثالثاً : أنه ليس على الناس الآن إلا أن يعرفوا أنبياء الله الصادقين ، وأنهم إذا علموا من رجـــل أنه نبي الله إليهم ، فعليهم أن يؤمنوا به ،

ويسمعوا له ، ويطيعوه في قوله ، ويذعنوا لأمره ، ويحتذوا على مثاله في كل شأن من شؤون حياتهم .

ونريد ان نبين لك الآن ما هي حقيقة النبوة ومـــا هو الطريق الى معرفة الأنبياء .

حقيقة النبوة :

إن الله تعالى قد خلق في هذا الكون كل شيء يحتاج اليـه الانسان . فهو مزوّدٌ منذ ولادته بالعينين للنظر ، والاذنين للسماع ، والانف للتنفس والشم ، والقوة اللامسة في الجلد للحس ، والقدمين للمشي ، واليدين للعمل ، والذهن للفكر ، وما اليها من الأعضاء المتعددة الاخرى التي يشتمل عليها جسده الصغير ، زوده الله تعالى بكل ذلك نظراً الى مختلف حاجاته . ثم عندما يدخل في هذه الدنيا ويبدأ فيها حياته ، يجد امامه من أسباب العيش ومرافق الحياة ، مالا يدركه الاحصاء ؛ فهناك الهواء والمـــاء والنور والحرارة ، واللبن في ثدي الام ، والحُبُّ في قلوب الابوين والأقارب وغيرهم . ثم على قدر نموه وترعرعه ، تزداد أسباب قضاء حاجاته في الدنيا ، كأنه لم يخلق كل مافي السماوات والارض من القوى العديدة إلا لانمائه والقيام بخدمته وحده .

ثم تقدم الى الأمام خطوة اخرى ، تجد أن الله تعالى وهب للانسان كل ما يحتاج اليه من المواهب والكفاءات والقوى ، للعمل في هذه الدنيا . فكل فرد من افراد البشر يحـــوز في نفسه قليلًا أو كثيراً من القوة الجسدية ، والعقل ، وقوة الفهم والفطنة والنطق . ولله في خلقه شؤون لا يحمد عليها إلا هو ، فانه ماسوى جميع أفراد البشرية في قسمة هـذه

المواهب والكفاءات بينهم ، ولو أنه سوّاهم جميعاً في قسمتها بينهم ، لاستغنى كل منهم عن أخيه ولم يحفل به أصلاً . ولأجل ذلك قدر الله تعالى مايحتاج اليه النوع البشري - من حيث مجموعه - من المواهب والكفاءات ، ثم وزّعها بين مختلف أفراده ، حيث جعل نصيب هذا من إحدى الكفاءات ما لم يجعل نصيب ذاك ، وجعل نصيب ذاك من كفاءة اخرى مالم يجعل نصيب هذا . ومن ثم ترى ان بعض الناس يفوق غيره في القوة الجسدية ، وبعضهم عنده من المهارة في فن من الفنون أو حرفة من الحرف ، ماليس عند غيره ، وبعضهم فيه من الذكاء والعقل وقوة الفهم ماليس في غيره ، وبعضهم يميل الى العسكرية ميلاً فطرياً ، وبعضهم يولد على كفاءة خاصة في الحكم والسيادة ، وبعضهم يولد على قوة غير عادية في الخطابة ، وبعضهم فيه من الملكة الانشائية ماليس في غيره وبعضهم يكون ثاقب الفكر متّقد الذهن في فن الرياضيات فيحل بكل سهولة كثيراً من مسائله المعضلة التي يعجز عن حلها غيره ، وبعضهم يخترع عجائب الأشياء وغرائبها ويدهش العالم بمخترعاته ، وبعضهم يكون ذهنه حاذقاً نافذاً في القانون وسرعان ما ينفذ نظره إلى كثير من نكاته التي لاينفذ اليها نظر غيره إلى عدة أعوام. فكل ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده . ولا يقدر رجل أن يوجد في نفسه هذه الكفاءات بنفسه ، ولا يمكن أن تتأتّى هي في نفسه بالتعليم والتربية ، وإنما هي مواهب فطرية يختص بها الله تعالى بحكمته من يشاء من عباده .

وإذا نظرت في وجود مختلف الكفاءات والمواهب في مختلف أفراد البشر ، علمت أن لله تعالى حكمةً بالغة في هذا الباب ، حيث قد جعل فيهم

كل كفاءة وموهبة على قدر حاجة النوع البشري إليها . فجعل رجال الجند وكذلك المتعاطين للزراعة والنجارة والحدادة والحياكة وما إليها من المهن الاخرى بحيث لا يكاد يحصى عددهم . أما أصحاب القوى العلمية والفكرية ومواهب السياسة والقيادة، فعددهم أقل من عدد أولئك ، وأقل عدداً من الجميع أولئك الذين لهم كعب بالغ ومهارة فذة في فن خاص من الفنون ، ذلك لأن أعمالهم تغني البشر إلى قرون وأجيال ، عن أمثالهم من الحذّاق في هذا الفن .

ولكن هل يكفي لحاجة النوع البشري وسعادة حياته في الدنيا ، أن يوجد في الناس الماهرون في فنون الهندسة والرياضات والكيمياء والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من الفنون الأخرى ؟ كلا ! بل الذي حاجته إليه أشد وآكد من حاجته إلى هذه الفنون كلها ، هو أن يكون في الناس من يأخذ بيده ويرشده إلى صراط الله المستقيم . نعم إن كل عالم من علماء هذه الفنون ، يرشده الى أن يعرف ماله في هذه الدنيا ، وما هو الطريق لاستخدامه ، ولكن حاجته أشد وآكد إلى من يبين له « من هو مالكه ، ومن ذا الذي وهب له ما في السماوات والارض ، وما هي مرضاة هذا الواهب ، حتى ينال الفوز الابدي اليقيني بقضاء حياته وفقها . » ومما يأباه العقل الانساني ، أن يكون الله تعالى ، الذي خلق للانسان كل صغير وكبير يمكن أن تمسه الحاجة إليه في هذه الدنيا ، قد غفل عن حاجة الانسان هذه ولم يكترث لها أصلاً ، وهي أكبر حاجات الانسان وأقدمها كما عرفت . نعم ! لا يمكن ذلك أبداً ، بل الله قد خلق في الناس رجالاً كانوا على استعداد عظيم لمعرفته بأنفسهم ، فأعطاهم من عنده علم الدين والأخلاق

والشريعة ، وكلّفهم بتعليمها سائرَ العباد في هذه الدنيا . فهؤلاء الرجال هم الذين نسميهم برسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

معرفة النبي :

كما أن البارعين في جميع العلوم والفنون ، يولدون على قريحة خاصة ، وطبيعة غير عادية ، يمتازون بها عن غيرهم ، كذلك يولد الأنبياء على طبيعة خاصة يمتازون بها عمن سواهم .

يتبين لك الشاعر المطبوع بمجرد سماعك لكلامه ، وتعرف أنه قد ولد مزوداً بملكة خاصة في الشعر ، لان غيره لا يأتي بمثل شعره ولو بذل أتم جهده . وكذلك تعرف الخطيب المطبوع ، والكاتب المطبوع ، والمخترع المطبوع ، والقائد المطبوع ، بأعمالهم ، فإن كل واحد منهم يأتي في أعماله بقريحة فذة ، لاعهد للناس بها في غيره . وكذلك تُلقى في روع النبي وتجول في ذهنه أفكار مبتكرة لا تخطر ببال أحد من البشر ، وهو يعرض على الناس ويشرح لهم من المسائل والموضوعات مالا يستطيع أن يبينه لهم غيره ، وينفذ نظره إلى أمور دقيقة لا يهتدي إليها نظر سائر الناس ولا يفهمونها ، رغم بذلهم كل جهودهم أعواماً وسنين . يقبل العقل السليم كل ما يقول ، وتشهد القلوب بصدق بيانه ، وكذلك تصدقه تجاربُ الدنيا ومشاهد الكون في كل قول من أقواله ، ولكن اذا أراد امرؤ ان يأتي بمثل شيء من أقواله فلن يستطيعه ابداً ، ويكون النبي طاهر الفطرة ، نقي السجية ، لا يسلك في كل شأن من شؤونه الا طريق الصدق والعفاف والشرف ، ولا يأتي في أقواله أو أعماله بشيء لا يلائم الحق والصواب . يهدي الى الرشد ، ويسابق غيره الى العمل بما

يأمر به الناس ، ولا يكاد يوجد مثال واحد في حياته لمناقضة عمله لقوله . وهو يتحمل المضرة في سبيل مصالح غيره ، ولا يضرهم في سبيل مصلحة نفسه . وحياته كلها صدق وأمانة وشرف وصفاء سريرة ، وفكرة عالية ، ومروءة سامية ، لا أثر فيها لعيب أو نقيصة . ويشهد كل ذلك شهادة ناطقة بأن هذا نبي الله الصادق ، أرسل الى الناس لهدايتهم .

طاعة النبي :

اذا عرفت عن رجل انه نبي صادق من عند الله تعالى ، فعليك أن تطيعه في كل ما يأمر به او ينهى عنه ، فانه مما يأباه العقل البشري العام ، أن تسلم لانسان بنبوته ثم لا تطيعه ، فانه لا معنى لتسليمك بنبوته الا انك قد آمنت انه لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول شيئاً الا من عندالله ، ولا يأتي بعمل الا حسب مرضاته تعالى ؛ فكل ما تقول او تعمل الآن خلافاً لهذا النبي ، فانما تقوله وتعمله خلافاً لله تعالى نفسه ، وكل ما يكون خلافاً لله تعالى ، لا يمكن أن يكون حقاً ابداً . فالذي يستلزمه ايمانك بالنبي ، أن تطيعه طاعة تامة بدون أي اعتراض أو توقف ، في كل ما يأمرك به وينهاك عنه ، سواء أفهمت ما في أمره أو نهيه من الحكمة والفائدة أم لم تفهم ؛ فان مجرد كونه من عند الله ، هو أكبر شهادة بصدقه وتضمنه لجميع الحكم والفوائد . واذا كنت لا تفهم حكمة من حكمه ، أو فائدة من فوائده ، فما ذلك لعيب في صميمه ، وانما ذلك لشيء من الفساد او القصور في قوة فهمك أنت . ومن الظاهر أن رجلاً غير ماهر في فن من الفنون ، لا يكاد يفهم دقائقه أو يحيط به علماً ، يكون بالغ السفه اذا رد على الماهر قولاً من اقواله ، لمجرد أنه لا يكاد

يفهمه أو يفطن لما فيه من الحكمة والفائدة . وكل امر من امور الدنيا مفتقر الى رجل حاذق فيه ، محيط بدقائقه ، وعندما يجد الناس مثل ذلك الرجل الحاذق ، يرجعون اليه ، ويصدقونه ، ويعتمدون عليه ، ولا يعترضون على ما يقول ، ولا يتدخلون في اعماله ؛ لأنه لا يمكن ان يكون جميع الناس ماهرين في جميع العلوم والفنون قادرين على فهم امور الدنيا كلها . فالذي يجب ان تقصر عليه قوة عقلك وفهمك هو البحث عن رجل ماهر ؛ فإذا وجدته وآمنت بمهارته فعليك أن تثق به كل الثقة وألاّ تتعرض لشيء من اعماله بالاعتراض والاصرار على رأيك ، ومن السفاهة ان تقول له : « لا اصدقك ولا أومن بمهارتك إلا اذا جعلتني على علم بما في عملك هذا وهذا وهذا من الحكمة والفائدة » . ألا تكل امرك الى المحامي عندما تعرض لك قضية في المحكمة ؟ وقل لي ألا يطردك هذا المحامي من مكتبه اذا تعرضت لاعماله بمثل هذا التدخل ؟ وكذلك قل لي ألا يكف الطبيب عن علاجك اذا طلبت منه الدليل على صحة كل وصفة من وصفاته ؟ فهذا ايضاً أمر الدين بعينه . انك محتاج الى علم الله والى ان تعرف الطريق الصحيح لقضاء حياتك وفقاً لمرضاته ، ولكن لا سبيل لك الى الحصول على هذا العلم ومعرفة هذا الطريق بنفسك ، فمن واجبك اذن ، أن تبحث عن نبي الله الصادق ، وتعمل في البحث عنه ، كلّ ما اعطاك الله من قوة العقل والبصيرة والفهم والفطنة ، فانك اذا اتخذت نبيك رجلاً لم يبعثه الله تعالى ، أضلك عن سبيل الحق ، وسلك بك طرقاً معوجة ، ولكن اذا أيقنت — بعد البحث والتنقيب والاختبار — أن رجلاً ما نبي الله مرسل من عنده ، فعليك أن تعتمد

عليه كل الاعتماد ، وتطيعه طـــاعة كاملة في كل شيء يأمرك به او ينهاك عنه .

الحاجة الى الايمان بالأنبياء :

إذا عرفت أن طريق الاسلام المستقيم هو الذي يرشد اليه النبي بأمر ربه ، علمت أن البشر جميعاً محتاجون الى الايمان بالنبي واتباعه وامتثال أمره ؛ وأن الذي يخالف النبي ، ويعرض عن طاعته ، ويبتدع طريقاً بنفسه ، هو الضال من غير شك .

والناس يأتون في هذا الباب بعجائب ؛ فمنهم الذين يعترفون بصدق النبي ولكن لا يؤمنون به ولا يطيعونه ، فما أولئك بالكافرين فحسب ، بل هم سفهاء ايضاً ، فإنه لا معنى لتصديق النبي والاعتراف بكونه من عند الله تعالى ثم الاعراض عن طاعته ، الا إيثار الباطل عـــلى الحق واشتراء الضـــلالة بالهدى عمداً . ومن الواضح ألا حماقة أفظع من هذه الحماقة .

ومنهم الذين يقولون لسنا بحاجة إلى اتباع الرسول ، لأن لنا عقلاً يمكن أن يرشدنا الى الصراط المستقيم ، فهذا أيضاً خطأ عظيم ، وضلال بعيد . قد تعلمت علم الرياضيات وتعرف أن الخط المستقيم الواصل بين نقطتين لا يكون إلا واحداً ، وكل خط دونه إما غير مستقيم ، أو غير واصل بين النقطتين . فهكذا لا يمكن أن يكون طريق الحق ـ المصطلح عليه في الاسلام بالصراط المستقيم ـ الذي يصل بين العبد وربه ، إلا واحداً ، بحكم قاعدة الرياضيات هذه . فكل طريق غير هذا الطريق ، إما غير مستقيم ، أو غير موصل العبدَ إلى ربه .

وتقدم خطوة اخرى ؛ قد عرفت أن الطريق الموصل الى الله واحد ، وهو الذي هدى اليه نبيه ، فكل من رغب عن هذا الطريق ، وأجهد نفسه في البحث عن طريق غيره ، لا يعدو أمره ان يكون على إحدى صورتين :

إما ألا يجد طريقاً موصلاً الى الله اصلاً ، او يجد طريقاً طويلا منحنياً . ففي الصورة الاولى لاشك في هلاكه . وأما الصورة الاخرى فلا شك ايضاً في كونها حماقة وضلالة على الأقل . الا ترى ان حيواناً اعجم اذا اراد الوصول الى مكان خاص ، اختار لسيره اليه خطاً مستقيما؟ فما ظنك اذن في انسان وهبه الله عقلا ، وأرسل اليه عبداً من عباده يدعوه الى ربه ، ويهديه سبيل الرشد والخير ، ولكنه يقول له كلا ! اني لن اتبعك ، ولن اسلك الطريق الذي ترشد اليه ، بل سأبذل جهدي بنفسي ، وأهيم على وجهي في سبل مظلمة ملتوية حتى أنال غايتي !.

وهذا شيء يدركه كل انسان بأدنى تأمل ، بل انك إذا أعملت فكرك قليلا ، تبين لك أن الذي يأبى أن يؤمن بالرسول ، لا يمكنه ان يجد للوصول الى الله تعالى طريقاً مستقماً ولا غير مستقيم ؛ لانه لا بد ان يكون قد أصيب في عقله بشيء يمنعه عن قبول الحق : فإما ان يكون ناقص الفهم ، أو أن يكون رجلا متكبراً في طبيعته شيء من الاعوجاج لا يرضى معه بقبول الحق ، أو يكون مغرقاً في التقليد الاعمى لآبائه ، ولا يرضى أن يسمع قولاً يفند شيئاً من الافكار والرسوم التي ورثها عنهم ، أو يكون عبداً قد اتخذ إلهه هواه ، ولا يجد من نفسه ميلا الى قبول تعليم الرسول ، لأنه يرى أنه اذا قبله ، فلن

يجد لنفسه مجالاً الى ارتكاب المعاصي والمنكرات التي اعتاد اقترافها في حياته . وكل من وجد فيه سبب من هذه الأسباب ، لا يمكن أن يهتدي الى سبيل الله ؛ ومن كان بريئاً من أي سبب من هذه الأسباب ، فمن المستحيل أن يعرض عن طاعة الرسول الصادق والاستسلام لتعليمه .

والذي يجب ألا تغفل عنه بهذا الصدد ، أن النبي إنما يبعثه الله تعالى ، وهو الذي يأمر الناس بالايمان به واتباع تعليمه . فكأن الذي لا يؤمن بالنبي ويتمرد عن طاعته ، يخرج على الله تعالى نفسه . وذلك أنه لا بد لك من طاعة حاكم يُوَلّى عليك من قبل الدولة التي أنت من رعيتها ، فإن أبيت أن تسلّم به حاكماً على نفسك ، فكأنك خرجت على الدولة نفسها . إن استسلامك للدولة وإعراضك عن حاكم توليه عليك ، نقيضان لا يجتمعان . وهذا مثل ما بين الله وبين النبي المبعوث من عنده . إن الله هو الملك الحقيقي للناس جميعاً ، فكل من أرسله اليهم هادياً مرشداً وأمرهم باتباعه ، فعليهم أن يؤمنوا به ويؤثروه بالطاعة على أي شيء آخر . والذي يعرض عن طاعته ، هو كافر ، سواء أكان يؤمن بالله أو لا يؤمن .

موجز تاريخ للنبوة :

هذا ، ونريد أن نبين لك الآن ، كيف بدأت في النوع البشري سلسلة بعث الانبياء وترقت ، حتى انتهت بنبوة نبي جليل ، هو سيد سائر الانبياء وخاتمهم .

مما لا يخفى عليك ، أن الله تعالى انما خلق في بدء الامر نفساً واحدة ، ومنها خلق زوجها ، ثم بثّ منهما جميع من نراهم اليوم يقطنون في

مختلف ارجاء الارض ونواحيها ، وتوزعوا إلى مختلف الشعوب والامم . وقد اتفقت روايات جميع الامم الدينية والتاريخية ، على أن النوع البشري إنما بدأت سلسلته من نفس واحدة بعينها . وكذلك لم تثبت تحقيقات العلوم التجربية (Science) ، أنه كان في مختلف مناطق الأرض وأرجائها أفراد مختلفون ، تفرعت منهم هذه السلالات والامم المتعددة المنتشرة في الأرض اليوم ، بل الذي يستنتجه اكثر علماء هذه العلوم قياساً ، هو أن يكون قد خلق في اول الامر إنسان واحد ، ومن هذا الانسان نفسه انتشرت هذه السلالات الانسانية الموجودة الآن .

هذه النفس الواحدة التي بدأت منها السلالة البشرية إنما هي آدم في لغتنا ، ومنها اشتقت كلمة « الآدمي » التي معناها الانسان . فآدم عليه السلام ، هو الذي اصطفاه الله وجعله أول رسول في الأرض ، وأمره ان يعلم ذريته الاسلام ، أي ان يبين لهم أن ليس لكم ولا لسائر هذا الكون إلا إله واحد ؛ فلا تعبدوا ولا تستعينوا إلا إياه ، ولا تسجدوا إلا له ، ولا تقضوا ايام حياتكم إلا وفقاً لمرضاته عادلين صالحين ، فان فعلتم جزاكم جزاء المحسنين الابرار ، وإن أعرضتم عن طاعته جزاكم جزاء السيئين الاشرار .

أما الصالحون من ذرية آدم ، فاتبعوا آباهم ، واستمسكوا بما هداهم إليه من الحبل المتين والصراط المستقيم . وأما الظالمون ، فأبوا أن يتقيدوا بطاعته ، واتبعوا أهواءهم ، حتى نشأت فيهم السيئات والمنكرات من كل نوع شيئاً فشيئاً . فمنهم من أخذ يعبد الشمس والقمر والنجوم ، ومنهم من اتخذ إلهه شجرة من الأشجار ، أو حجراً من الأحجار ، أو نهراً من

الأنهار ، أو حيواناً من الحيوانات ، ومنهم من ظن أن لكل من الماء والنار والمرض والصحة وما إليها من قوى الطبيعة ونعمها الاخرى إلهاً خاصاً به فعلى الانسان أن يعبد جميع هؤلاء الآلهة ويسعى لارضائها حتى تشمله جميعاً بفضلها وإنعامها ، وهكذا ولدت الجهالة غير واحدة من صور الشرك وعبادة الأصنام والأوثان ، وتفرعت منها ديانات متعددة في الأرض . وقد حدث كل ذلك عندما انتشرت ذرية آدم في مختلف أرجاء الأرض ونواحيها ، وتوزعوا إلى مختلف الشعوب والامم ، فجعلت كل أمة لنفسها ديانة خاصة بها ، لها طائفة من الرسوم والشعائر لم تكن لغيرها ، وجملة القول إن الناس لما نسوا الله ربهم ، نسوا دينه الذي جاءهم به وأرشدهم إليه أبوهم آدم عليه السلام ، واتبعوا أهواءهم ، وتسربت إليهم الرسوم والتقاليد السيئة من كل نوع . وتفشت بينهم الأفكار الباطلة والآراء الجاهلية ، وأخطأوا في تمييزهم بين النافع والضار والحق والباطل . ولذلك أخذ الله تعالى يبعث رسله وأنبياءه في كل أمة ، يعلمون الناس ويوضحون لهم نفس الاسلام الذي كان قد جاء به — من قبل — آدم عليه السلام ، ويذكّرونهم بما نسوه من قبل ، ويرشدونهم إلى عبادة الاله الواحد ، وينهونهم عن الشرك وعبادة الأصنام والأوثان ، ويقمعون ماراج فيهم من التقاليد الفاسدة والرسوم الباطلة ، ويهدونهم إلى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم ، ويبيّنون لهم القوانين الصحيحة ويأمرونهم باتباعها . وما من قطر من أقطار الأرض ، من الهند أو الصين أو فارس أو العراق أو مصر أو إفريقية أو أوربة إلا خلت فيه رسل الله وأنبياؤه . وما كان هؤلاء الأنبياء جميعاً إلا على دين واحد هو الذي نسميه اليوم

«الاسلام»(١) ، غير أنه كان هناك فرقٌ يسير ، بين طرق مختلف الأنبياء في الارشاد وقوانينهم للحياة ، وذلك أن كل نبي قَصر جهده، في استئصال ذلك النوع الخاص من الجهالة ، الذي كان منتشراً في قومه ، وإصلاح تلك الأفكار الباطلة ، التي كانت راسخة فيهم خاصة ، وحينما كانت هذه الأمم في مرحلتها الاولى من حيث الحضارة والتمدن والعلم والعقل ، فقد جاءها انبياؤها بتعاليم وشرائع بسيطة ، وكلما ارتقت من هذه الوجوه، وُسّع لها في نطاق تعاليمها وشرائعها ومناهجها . ثم لم يكن هذا الاختلاف إلا بالظواهر فقط ، فان الروح الذي يسري في جميع هذه الشرائع والتعاليم واحد، وهو توحيد الاله في العقيدة، والصدق والاخلاص في العمل ، والايمان بالحياة الآخرة .

وعجيب جداً ماعامل به الناس هؤلاء الرسل والأنبياء ؛ فقد آذوهم واستكبروا عن طاعتهم ، فقتلوا بعضاً منهم ، وأخرجوا بعضاً من ديارهم، حتى لم يؤمن بفريق من هؤلاء الأنبياء بعد ما أفنوا أعمارهم في الدعوة إلا بضعة نفر فقط . لكن عباد الله المصطفين هؤلاء ، ماوهنوا ولا استكانوا في جهودهم ، حتى أثّرت دعوتهم واتبعتهم كبار أمم الأرض . وهاهنا اختارت الضلالة قالباً جديداً لنفسها فبدلت الامم تعاليم الأنبياء بعد وفاتهم ، وأدخلت في كتبهم ظنوناً كاذبة ، واخترعت للعبادة طرقاً جديدة من عند نفسها . فمن الناس من بدأ يعبد الأنبياءَ أنفسهم ، ومنهم

(١) من سوء الفهم الذي نرى عامة الناس ، بل كثيراً من أهل العلم منهم ، متورطين فيه ، ان الاسلام كان بدؤه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا خطأ فاحش ينبغي أن يكون ذهن الطالب سالماً منه كل السلامة . ولبعلم كل طالب ، أن الاسلام هو الدين الحقيقي الوحيد للنوع البشري منذ أول امره ، وكل رسول من رسل الله في أي زمان ومكان إنما جاء بهذا الدين نفسه.

من قال إن الله نزل إلى الارض بصورة نبيه ، ومنهم من جعل نبيه ابن الله، ومنهم من أشرك نبيه بالله في ألوهيته . وهكذا عبث البشر في مختلف الأزمان وسائر الأقطار بتعاليم الأنبياء بعد وفاتهم : جعلوا أصناما وتماثيل للذين كسروها من قبل ، وعكفوا عليها ، ومسخوا تعاليم الأنبيـــاء وشرائعهم ومزجوها بأنواع من البدع والرسوم الجاهلية والتقاليد الكاذبة والأقاصيص الملفقة ، وخلطوها بما وضعه الانسان من القوانين من تلقاء نفسه ، حتى لم تبقَ للانسان بعد عدة قرون وسيلة يميز بها هداية الرسل وشريعتهم الأصلية مما خلطها به من جاء بعدهم من أتباعهم (١) . وكذلك غابت في ثنايا الروايات الملفقة أحوال الأنبياء وسيرهم الحقيقية ، حتى مابقي عند الناس شيء يُعتمد عليه ويوثق به . غير أن جهود الأنبياء ومساعيهم ماذهبت كلها سدى ؛ فقد بقي جزء من الصدق والحق في كل أمة ، على الرغم من مسخها لتعاليم نبيها ، ومزجها إياها بما شاءت . فقد انتشرت العقيدة بالله والحيـــاة الآخرة في جميع الامم بأية صورة من الصور ، وسلّمت الدنيا عامة بمجموعة من مباديء الصلاح والصدق والأخلاق ، وربى كل نبي أمته وهيأها لقبول الحق ، حتى أصبح من الممكن أن يعم الأرض كلها من أقصاها إلى أقصاها دين واحد بعينه . ويكون هو

---

(١) هكذا ياأخي الطالب بدلت الامم الماضية دينها الحقيقي — اي الاسلام — واخترعت من تلقاء نفسها مانجد اليوم في الدنيا من مختلف الديانات المسماة بمختلف الاسماء. فما جاء السيد المسيح مثلاً إلا بالدين الاسلامي الحقيقي ، ولكن الذين جاؤوا بعده أهوه ومزجوا تعليمه النقي الصافي بما شاؤوا من الاباطل من عند انفسهم واخرجوا للناس ديناً جديداً سموه « بالمسيحية » .

الدين الوحيد للانسانية جمعاء ، من غير مافرق بين مختلف أممها .

وهكذا بينا لك من قبل ، أنه ما كان يرسل إلى كل أمة إلا رسل مختصون بها ، وفيها كانت تنحصر دعوتهم . ذلك بأن الامم في تلك الازمنة كانت متباينة ، غير مختلطة في ما بينها ، وكانت كل أمة منقيدة بحدود أرضها ، فكان من الصعب في مثل تلك الاحوال ، أن ينتشر في جميع أمم الأرض وشعوبها ، تعليم مشترك شامل موحد ، زد على ذلك أن أحوال كل أمة كانت مختلفة عن أحوال غيرها ، وكان الجهل مطبقاً أرجاء الأرض كلها ؛ فكانت المفاسد التي تتولد من جراء هذا الجهل في الاعتقاد والاخلاق ، تختلف صورها باختلاف الاماكن والازمان . فمن اجل كل ذلك لم يكن بدٌّ أن يأتي إلى كل أمة من أمم الارض ، رسول يهتم بتعليمها وارشادها إلى الحق خاصة ، ويقضي عليها أوهامها الخاطئة ، وينشر فيها — مكانها — الافكار الصحيحة شيئاً فشيئاً ، ويصدها عن الطريق الباطلة ويهديها إلى اتباع القوانين العادلة العالية ، ويربي أفرادها كما تربي الام أطفالها الصغار . ولا يعلم إلا الله كم مضى من ألوف السنين في تربية امم الأرض بهذه الطريقة ؛ حتى جاء على الانسانية حين من الدهر ، اجتازت فيه أيام صباها ، وبدأت تبلغ أشدها ، وربطت كثير من العلاقات مع الرقي الصناعي والتجاري بين مختلف عناصرها ، وأصبح الناس يسافرون من بلاد اليابان والصين إلى بلاد أوربة وإفريقية البعيدة بالطرق البحرية والبرية ، وراجت الكتابة في معظم امم الأرض ، وانتشرت فيها العلوم والفنون ، وتبودلت بينها النظريات

والأفكار والموضوعات العلمية ، ونبغ فيها من الفاتحين وأولى البأس من دوخوا البلاد المجاورة ، وأنشأوا في الارض ممالك عظيمة ، تشتمل على غير واحد من الاقطار ، ويسكنها غير واحدة من الامم ، وهكذا جمعت تحت نظام سياسي واحد ، وبدأ يتبدد ماكان من قبل بين الامم المختلفة من التباعد وعدم التعارف ، وأصبح من الممكن أن ينزل تعليم الاسلام الوحيد وشريعته الوحيدة للأرض قاطبة . ولو رجعت إلى ماقبل نحو ألفي سنة ونيف من تاريخ الانسان ، لوجدته يتطلب بلسان حاله ديناً كاملاً يكون دين البشرية جمعاء . فالديانة البوذية ، لم تكن ديناً كاملاً ، وإنما كانت مشتملة على مباديء خلقية ، ولكنها انتشرت مع كل ذلك في بلاد الصين واليابان ومنغوليا في جانب ، وفي أفغانستان وبخارى في الجانب الآخر . ثم جاءت الديانة المسيحية بعدها بقرون ؛ ولا شك أن السيد المسيح كان قد جاء بتعليم الاسلام الخالص ، ولكن الذين جاؤوا من بعده مزجوا هذا الدين بما شاؤوا من عند أنفسهم ، حتى لم يعد إلا ديانة ناقصة سموهـــا بالمسيحية . ومع ذلك انتشرت المسيحية في فارس وإفريقية وأوربة ، مما يدل على أن الدنيا كانت متعطشة في ذلك الزمان إلى دين عالمي كامل حتى إذا لم تجده ، اقتنعت بديانات ناقصة وآمنت بها وأخذت تنتشر فيها .

نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم :

في هـــذا الزمان الذي وصفناه ، بعث للدنيا وجميع أمم الارض وشعوبها ، رسول واحد هو سيدنا ومولانا محمد ﷺ في بلاد العرب ،

ووكل إليه أن يبلغ العالمين جميعاً ، ما أوتي من الهدى ودين الحق والقانون الشامل .

وإذا نظرت نظرة في جغرافية العالم ، علمت أن بلاد العرب هي أنسب أرض للرسالة العالمية ؛ فهي بين آسية وإفريقية وأقرب ماتكون لأوربة ، لاسيما بالنسبة إلى ذلك الزمان الذي كانت فيه أمم أوربة الراقية المتمدنة تسكن في الاقسام الجنوبية منها ، وبعدها عن بلاد العرب يعدل بعد الهند عن هذه البلاد .

ثم إذا قرأت ما قالت كتب التاريخ عن ذلك الزمان ، عرفت أنه ما كانت في الدنيا أمة أنسب وأجدر بهذه الرسالة العالمية من الامة العربية. فقد أخذت أسباب الوهن والانحلال تدرك سائر الامم الراقية والقوى العظيمة ، بعد أن أقامت الدنيا وأقعدتها . بينما كانت الامة العربية — إذ ذاك — موفورة الجأش حامية الدم . وكان نمو المدنية وارتقاء الحضارة وانتشار الترف في الامم الاخرى قد أفسد عليها عاداتها وخصالها. أما الامة العربية فما كانت الى ذلك العهد على مدنية تجعلها ناعمة البال ، مولعة بالبذخ والترف ، مائلة الى السفائل والرذائل ، وكانت هذه الامة بمنجاة تامة في القرن السادس للميلاد ، من الآثار السيئة لامم الارض المتمدنة الاخرى ؛ وكان فيها من الصفات الانسانية العالية جميع مايمكن أن يكون في أمة لم تصدمها المدنية بعواصفها ؛ وكان العرب شجعاناً مقاديم لايقيمون وزناً للرهب والخوف ، باسطي الايدي ، قائمين بالعهود ، أحرار الفكر والنظر ، يحبون الحرية والاستقلال ، ويؤثرونها على كل شيء خر ، ولم تكن أعناقهم خاضعة لأمة أجنبية ، وكانت عاطفة الاستمانه

في الذود عن أعراضهم تجري في عروقهم . وكانوا يعيشون عيشة ساذجة لاتعرف الترف والتنعم . لاريب أنـــه كانت فيهم كثير من السيئات والمنكرات ، ولكن الحق أنه ما كان منشأ هذه السيئات الا أنه ما خلا فيهم رسول من الله منذ ألفين وخمسمائة سنـة (١) ، وما قام فيهم زعيم يزكيهم ويعني بإصلاح أخلاقهم وتعليمهم المدنية والثقافة ، وكانت الجاهلية منتشرة فيهم لمـا عاشوا عيشة الحرية في الصحراء قروناً من الزمان وقـد بلغ تماديهم في هذه الجاهلية أنه لم يكن لاحـد قبـل بتهذيبهم واخراجهم من ظلمات البهيمية الى نور الانسانيـة ... ولكنهم كانوا مع كل ذلك أهلاً لأن يقيموا الدنيا ويقعدوهااذا عني بإصلاحهم وتعليمهم رجل عبقري وقاموا على أثر دعوته وتعليمه بغاية سامية ورساله شريفة في الدنيا . فالى مثل هذه الامة الفتية الباسلة المقدامة ، كانت تحتاج الرسالة العالميـة لنشر كلمتها وتعميم دعوتها في سائر أرجاء الدنيا ونواحيها .

ثم انظر نظرة في اللغة العربية ، فانك اذا قرأت هذه اللغة ودرست أدبها ، ظهر لك من دون أدنى ارتياب ، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة لاداء الافكار العالية ، والافصاح عن أدق معاني العلم الالهي والتأثير في القلوب . فبالجمل الصغيرة من هذه اللغـــة تؤدي الموضوعات المهمة ، وتكون قوية التأثير في القلوب ... الى مثـل هذه اللغة كانت تحتاج معاني القرآن الكريم . فمن حكمة الله البالغـة ورحمته الشاملة بعباده إذن أن اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية . فتعال

---

(١) كان زمان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قبل نحو ٢٥٠٠ سنة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . وما ارسل في العرب خلال هذه المدة الطويلة رسول من عند الله تعالى.

نبين لك ما جعل الشخص الذي اصطفاه الله تعالى لهذه النبوة منقطعَ المثال في هذه الدنيا .

ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

إرجع ببصرك الى ماقبل ١٤٠٠ سنة من تاريخ هذه المعمورة ، تجد أنه لم يكن فيها البرق ولا الهاتف ولا القطار ولا السيارة ولا المطبعة ، ولم تكن تصدر فيها الجرائد والمجلات ولا تنشر الكتب ، ولم يكن يتيسر للناس من السهولة في أسفارهم ما نجده في زماننا هذا ، فكان كل من أراد أن يسافر من قطر الى آخر ، عليه أن يسير الاشهر الطوال . فكأن بلاد العرب كانت في مثل هذه الحال منقطعة عن سائر اقطار الدنيا . صحيح أنه كانت حولها بلاد الفرس والروم ومصر ، ولكن الجبال المترامية الجوانب من الرمال كانت تفصل جزيرة العرب عن هذه البلاد جميعاً .

نعم كان تجار العرب يرحلون للتجارة إلى هذه البلاد على ظهور جمالهم ، ويصرفون في قطع الطريق اليها الاسابيع والأشهر ، ولكن ما كانت تعدو غاية هذه الرحلات شراء البضائع وبيعها . أما أرض العرب نفسها ، فما كان فيها مدنية راقية ، ولا مدرسة ولا مكتبة ، ولا انتشار للعلم والتعليم في الناس . والذين كانوا ، يعرفون منهم القراءة والكتابة ، يعدون على الأنامل . ثم ما كانت معرفتهم بها بحيث تعينهم على الالمام بما كان خارج بلادهم من العلوم والفنون في ذلك الزمان ، وما كانت فيهم حكومة تهتم بجمع كلمتهم ولا قانون يأمرهم وينهاهم ، بل كانت كل قبيلة فيهم مستقلة بنفسها . وكانوا يسلبون الناس وينهبونهم بكل حرية ،

ويسفكون الدماء في الحروب الاهلية الدامية المستمرة . وكانوا لا يقيمون وزناً للنفس البشرية ، فكان من يشاء يقتل من شاء كلما وجد الى قتله سبيلاً ، ويستولى على ماله ، وما كانت عليهم مسحة من الثقافة ، وكانت الفواحش والمنكرات والخمر والميسر نافقة السوق فيهم ، وكانوا يعرُون في ما بينهم من غير كلفة ولا حياء ، حتى ان نساءهم كن يطفن بالبيت الحرام عاريات ، وما كانوا يعرفون الحلال من الحرام . وقد كانت الحرية بلغت بهم مبلغاً جعلهم لا يتقيدون بقاعدة ولا قانون ولا وازع خلقي ، ويأبون الطاعة والانقياد لحاكم من الحكام . زد على ذلك أن الجهالة كانت قد تأصلت فيهم جذورُها ، وكانوا يعبدون الاصنام ويسجدون لها ، فاذا سافروا ونزلوا منزلاً وجدوا فيه حجراً جميلاً ، اتخذوه رباً لأنفسهم وقضوا حاجتهم من العبادة بالسجود له ، أي أن الاعناق التي أبت أن تخضع لأحد كانت تخضع للأحجار والأصنام وتظن أن هذه الأحجار هى التي تقضي لهم حاجاتهم ، وتحقق آمالهم وأمانيهم .

في مثل هؤلاء القوم وفي مثل هذه الأحوال ولد مولود مات عنه أبوه قبل أن يولد ، ثم مات عنه امه وجده في أيام صباه ، فما تلقى من التربية ماعسى أن يتلقاه حتى في هذه البيئة المتداعية لو كان أبواه وجده أحياء . فلما نشأ ، وجد نفسه يرعى الغنم مع أترابه من أبناء العرب . ولما شبّ اشتغل بالتجارة ، وما كانت مجالسته ومعاشرته ومخالطته إلا لاولئك العرب أنفسهم الذين سلف القول فيما كانوا عليه من الأحوال . وكان أمّياً لا يعرف القراءة والكتابة ... ولكنّ عاداته وأخلاقه وخصاله وأفكاره كانت مختلفة كل الاختلاف عن عادات قومه

وأخلاقهم وخصالهم وأفكارهم . فما كان يكذب في حديثه ، ولا يؤذي احداً بيده او لسانه ، وكان لين الجانب خفيف الظل عذب الكلام محبه ويفديه كل من جالسه مرة ؛ وما كان ليأخذ من أحد شيئاً ولو كان حقيراً بطريق غير حسن ؛ وكان من الأمانة والصدق والعفاف على حظ كبير ، جعل كثيراً من أبناء قومه يأمنونه على أموالهم الثمينة ، ويودعونه إياها ، وهو يحافظ عليها كما يحافظ على نفسه وماله . والناس كلهم يعتمدون عليه ، ويثقون بأمانته ، مما جعلهم يلقبونه بالأمين . وكان حيياً لم يظهر لأحد بدنه عرياناً بعد ما بلغ سن الشعور . وكان مهذباً ينفر من الشر والرذيلة ، على الرغم من كونه قد نشأ وعاشر طول حياته رجال الشر والرذيلة . وكان نظيفاً نزيهاً في كل عمل من أعماله ، وكان طاهر القلب ، يتألم عندما يرى قومه ينهبون ويسفكون الدماء ؛ وكان يسعى لاصلاح ذات بينهم كلما حمي بينهم وطيس الحروب والمعارك . وكان رؤوفاً رحيما لين الجانب يشاطرهم فيما ينزل بهم من المصائب ، وينصر الأيتام والأيامى ، ويطعم الجياع ، ويضيف أبناء السبيل ، ويكرم مثواهم ويتحمل الشدائد والخسائر لغيره . وكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة ، يعاف عبادة الأوثان والأصنام على معاشرته لقوم كانت الوثنية فطرتهم الثانية ، ودينهم الذي ورثوه عن آبائهم كابراً عن كابر ، وما كان ليطأطىء رأسه لأحد من الخلق ، كأن قلبه يحدثه أن كل شيء في الأرض أو السماء لا يستحق العبادة ، وأن الله واحد ليس له ، ولا يمكن أن يكون له شريك . فكان هذا الرجل يتلألأ بين هؤلاء القوم الجاهلين كما تتلألأ الجوهرة الكريمة بين الأحجار الكثيرة أو كما يتلألأ السراج في ظلمة الليل .

وبعد أن عاش في قومه عيشة نظيفة رفيعة ، وبلغ أربعين سنة ، ضاق ذرعاً بهذا الظلام المطبق على مجتمعه من كل جانب ، وأراد لنفسه النجاة من هذا البحر الخضم من الجهل والفوضى ، والانحلال الخلقي والعملي ، والشرك والوثنية ، فانه ما كان يجد فيه شيئاً يلائم فطرته . فبدأ يخرج من مكة ، ويقضي أياماً طوالاً في غار حراء في عالم الوحدة والخلوة ، يزكي روحه وقلبه بالتنحث [1] والجوع ، ويتأمل وينشد نوراً يقشع به الظلام المطبق على قومه ، ويريد شيئاً يصلح به هذه الدنيا الملأى بأسباب الخبث والفساد والفوضى .

وهناك يحدث تغير عظيم في حاله ، ويستنير قلبه فجأة بذلك النور الذي كانت تتشوف إليه فطرته ، ويمتلىء بالقوة التي ماظهرت فيه من قبل ؛ فيخرج إلى قومه من خلوة الغار وينادي فيهم : أن هذه الأصنام التي تعبدونها وتعكفون عليها لاتضركم ولا تنفعكم فاتركوها ؛ وأن هذه الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات والأرض من القوى ، ماخلقها إلا الله وحده ، وهو خالقكم ورازقكم وهو الذي يميتكم ثم يحييكم ، فلا تعبدوا غيره ولا تستعينوا إلا أياه ولا تطلبوا قضاء حاجاتكم إلا منه ، ومن الاثم ما تأتونه من أعمال السرقة والنهب والفاحشة وادمان الخمر ولعب الميسر ، فانتهوا عنها ؛ واصدقوا في أقوالكم وأعمالكم ، واعدلوا ، ولا تقتلوا نفساً إلا بحق ، ولا تسلبوا الناس أموالهم ، ولا تأخذوا شيئا ولا تعطوه إلا بالحق ، وكلكم بشر والبشر كلهم سواء .

---

(١) التحنث : التعبد ليالي متعددة ، واعتزال الاصنام .

وليس الشرف والفضل بالنسب ولا باللون والملبس ولا بالجاه والثروة ، وانما هما بالتقوى والصلاح والخير . فمن كان صالحاً يتقي الله وينهى نفسه عن السوء ، فهو الشريف الكامل في إنسانيته ، ومن لم يكن كذلك ، فليس من الشرف والفضل في شيء ولاحظ له في الآخـــرة . وكلكم مجموعون الى ربكم بعد حياتكم الدنيا ولا ينفعكم في محكمته العادلة شفاعة ولا خلة ولا رشوة ولا تُسألون عنده عن علو نسبكم وإنما ينفعكم فيها إيمانكم وأعمالكم الصالحة . فمن كان مؤمناً قد عمل الصالحات منكم دخل الجنة ، ومن لم يكن عنده شيء منها ، خسر خسراناً مبيناً وكان من أصحاب النار .

لكن قومه بدأوا يؤذونه ، لا لشيء ، إلا انه يعيب عاداتهم ورسومهم الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم ، ويصد الناس عن عبادة الاوثان والاصنام ويدعوهم إلى الاسلام لله وحده ، ولذلك آذوه وسبّوه واهانوه ورموه بالحجارة وضيقوا عليه الخناق وتآمروا على قتله ، وما زالوا ينزلون به من انواع الشدائد والآلام اشد ما كانوا يقدرون على إنزاله ، حتى اضطر صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث عشرة سنة الى الهجرة من وطنه . ولكنهم ما شفوا غليل نفوسهم بعد ذلك كله ، وما فتئوا يعملون على ايذائه وإزعاجه في المدينة التي التجأ اليها بعد مغادرة وطنه .

لماذا تحمل هذا العبد الصالح كلّ هذه الشدائد والمصائب وصبر عليها من قومه ؟ ذلك لأنه أراد أن يرشدهم الى صراط الحق المستقيم . وقد عرضوا عليه أن يملكوه على أنفسهم ، أو يجمعوا له من أموالهم ، حتى يكون أكثرهم ثراءً على أن يقلع عما هو عليه من الدعوة إلى الله . ولكنه

رفض كل ذلك رفضاً وأبى إلا الاستمرار في دعوته . فهل يمكن أن يكون في الدنيا رجل اكثر منه صلاحاً وصدقاً وإيثاراً ؟ إنه لا يتحمل كل هذه الشدائد والآلام في سبيل نفسه ، ولكن لصالح غيره من عباد الله ، وهم يرمونه بالحجارة ويغمزونه بأقبح الكلمات ولكنه لا يدعو لهم إلا بالخير .

ثم تفكر قليلا في ذلك التغيير العظيم الذي حدث فيه بعد خروجه من الغار : كان الكلام الذي يتلوه على الناس بالغاً من الفصاحة والبلاغة قمتها ، حتى لم يأت بمثله أحد قبله ولا بعده . كان العرب ، كما لا يخفى عليك ، يفتخرون بشعرهم وخطابتهم وفصاحتهم في الكلام ، فتحداهم ان يأتوا بسورة من مثل هذا الكلام . فأعياهم وطأطؤوا رؤوسهم عجزاً . والذي يدعو إلى العجب أكثر من ذلك ان اللسان الذي كان يستعمله ويتكلم به في أحاديثه للناس وفي خطبه ، ما كان يعادل لسان ذلك الكلام بلاغةً وفصاحةً . فاذا قارنت بين ذلك الكلام وبين خطبه وأحاديثه ومحاوراته للناس . تجلى لك الفرق واضحاً جلياً بينهما .

قد بدأ هذا الامي - ﷺ - الذي لم يولد ولم يقم طول حياته إلا في الصحراء بين الاميين ، يأتي بحكم ومواعظ لم ينطق بها احد قبله ولا استطاع ان ينطق بها احد بعده ، بل لم يسمعها الناس من لسانه نفسه قبل أن يبلغ اربعين سنة من عمره .

و كذلك وضع هذا الامي - ﷺ - قوانين في الاخلاق والاجتماع والسياسة وفي سائر الشؤون الانسانية ، لايكاد يدرك حكمها وأسرارها فحول العلماء و كبار الحكماء على بعد نظرهم وتجارب حياتهم ، إلا بصعوبة .

عظيمة ، بل ستظل تنكشف للدنيا في المستقبل من حكم هذه القوانين ومقاصدها ، على قدر ماتزداد تجاربها على مر الايام . لقد وضع هـذا الامي قوانينه قبل اكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولكننا لا نستطيع ان نجد فيها اليوم موضعاً واحداً يحتاج الى التغيير وإعادة النظر ، أو مادة واحدة يمكن حذفها أو إزالتها عن مكانها ، مع أن القوانين الوضعيـــة الأخرى وضعت مراراً وغير فيها مراراً .

وفي مدة الـ ٢٣ سنة الوجيزة ، صار كثير من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وتآمروا على قتله ، ولم يألوا جهداً في إيذائه ، من اصدقائه المفدّين له بالارواح .. وكل ذلك بفضل أخلاقه وشرفه ونبله وتعاليمه السامية . فقد قامت في وجهه القوى العظيمة الجبارة ، فانكسر اهلهـا وانقلبوا صاغرين أمامه ؛ وعندما انتصر عليهم لم ينتقم من أحدٍ منهم ، بل غمره بفضله واكرامه وانعامه . فقد غفر لمن قتلوا عمه وأخاه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب وبقروا بطنه ولاكوا كبده ، وأسبغ كسوة الغفران والعفو الشامل على من رموه بالحجارة وأخرجوه من وطنه . . وما كاد لأحدٍ ، ولا نقض عهده ، ولا اعتدى عليه في حرب ، وكان ذلك مما يجترىء لاجله حتى أعدى اعدائه ان يتهموه بالغدر والظلم ونقض العهد ، وذلك هو الذي سخر له قلوب العرب جميعاً ، الى أن أخرجهم ـ بتعليمه وهدايته ـ من دياجير الجهل والهمجية ، وجعلهم امة حائزة قصب السبق في النظام والتهذيب . والعرب الذين ما كانوا ليتقيدوا بقانون من القوانين ، أخرج منهم امة في غاية من التقيد بالنظام والقانون ، لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم . والعرب الذين ما كانوا ليرضوا بطاعة أحـــد

والانقياد لأمره ، جعلهم منقادين لدولة عظيمة مفدين لها بأرواحهم وأموالهم . والذين ما كانوا من الاخلاق والآداب في شيءٍ ، قد زكى آدابهم وهذب اخلاقهم ، حتى ان الدنيا لا تكاد تقضي عجبها اليوم عند ما تقرأ وقائعهم واحوالهم في كتب التاريخ . والذين كانوا أحط امم الارض وأضعفها ، نالوا في أنفسهم بفضل تأثير هذا الرجل الواحد ، ودعوته خلال ٢٣ سنة ، قوةً سخرت لهم دول فارس والروم ومصر ، وقاموا يعلمون الدنيا الشرف والمدنية والاخلاق والانسانية ، وانتشروا بتعليم الاسلام وشريعته في أنحاء آسية وأفريقية وأوربة النائية .

تلك هي الآثار التي تركها ذلك الأميُّ ﷺ في نفوس العرب . أما ما فعله هذا التعليم في نفوس سائر امم الارض ، فهو اكثر من هذا وأدعى الى العجب ، فقد أحدث ثورة عظيمة في افكار سائر اهل الارض وعاداتهم وقوانينهم . فاذا سرحت النظر في الذين اعرضوا عن اتباعه ، وخالفوا عن امره ، وناصبوه العداء ، فضلًا عن الذين اتبعوه وجعلوا منه أسوة لانفسهم ، وجدتهم ما استطاعوا أن يمنعوا انفسهم التأثر بتعليم هذا الأمي . كانت الدنيا قد نسيت توحيد الله ، فجاء هذا الامي - ﷺ - فذكّرها به من جديد ، حتى ان ديانات الوثنيين والمشركين لا تجد اليوم بداً من دعوى التوحيد لله تعالى . وكذلك كانت المبادىء التي لقنها الناس في الاخلاق والآداب بالغة القوة ، حتى تأثرت ولا تزال تتأثر بها اخلاق سائر امم الارض وآدابها . وكذلك كانت المبادىء التي وضعها في القانون والسياسة والمدنية والاجتماع ، من الصحة والصدق والاتقان بمكانٍ ، جعل الاعداء والجاحدين يصدق كلامه يقتبسون ويَستَرِقون

منها ، بل لايزالون يقتبسون ويسترقون منها الى اليوم .

هذا الرجل كما بينا لك من قبل ، ما نشأ الا مع الفطرة ، في أمة عريقة في الجهل والهمجية ، ولم يشتغل إلا برعي الغنم أو التجارة حتى بلغ أربعين سنة من عمره . ولم يتلقَّ أي نوع من التعليم والتربية ، فكيف تجمعت فيه مظاهر الكمال هذه دفعة واحدة بعد بلوغه اربعين سنة من عمره ؟ ومن أين حصلت له هذه المعرفة والعلم ؟ ومن اين وجدت هذه القوة غير العادية ؟ فتراه قائداً منقطع المثال من قواد الجيش ، وقاضياً ماهراً من القضاة ، ومقنّناً غير عادي من المقنّنين ، وفيلسوفاً نطاسياً من الفلاسفة ، ومصلحاً مبتكراً من مصلحي الاخـــلاق والتمدن ، وسياسياً محنّكاً من رجال السياسة في حين واحد . ثم تراه يعبد ربه ساعات طوالاً في الليل ، على كثرة ماعليه من الاشغال المهمة في النهار . وكذلك تراه يؤدي ما عليه من الحقوق لازواجه وأولاده وعشيرته ، ويخدم الفقراء والمساكين ، ويواسي المنكوبين واليتامى ، ولا يعيش إلا عيشة الفقراء على ما نال من ملك عظيم : ينام على الحصير ، ويكتسي الخشن ، ويطعم القديد ، بل قد تمر عليه أيام لايطعم فيها شيئاً .

فلو أنه قال للناس بعد هذه الامور المدهشة إني لست كمثلكم وأنا فوق النوع البشري ، لما وسع أحداً من الناس ان يكذبه ويرد عليه دعواه . ولكنه لم يقل ذلك ، ولم يَدَّعِ ان هذه المواهب غير العادية من تلقاء نفسه ، بل إنه قال دائماً ، إنه ليس شيء من هذه المواهب من عند نفسي ، وكل ما عندي من شيء فهو لله ومن الله ، وأن هذا الكلام الذي جئتكم به ، وقد عجز عن الاتيان بمثله الجن والانس ، ماهو من

عند نفسي ، ولا من بنات فكري ونتيجة قريحتي ، بل هو كلام الله ولا يرجع الفضل فيه إلا إلى الله وحده ، وكل ما آتي به من عمل ، فليس من كفاءتي الشخصية ، بل الله تعالى هو الذي وفقني له ، وإني لا أعمل شيئاً ولا أقوله إلا حسب ما يأمرني به ربي . فقل لي بعد كل ذلك ، مالنا ألا نؤمن بمثل هذا الرجل الصادق ، ولانسلم به نبياً مرسلاً من عند الله تعالى ؟ أنظر إلى مواهبه في جانب : ما أنجبت الانسانية قبله ولا بعده رجلاً يماثله فيها ، وإلى صدقه وامانته بالجانب الآخر : لا يفتخر بما أتى به ، ولا يكسب الثناء على نفسه بنسبته إلى نفسه ، وانما يعزوه الى الله الذي أكرمه بها . فما لنا بعد كل ذلك لا نصدقه فيما يقول ؟ وما لنا نكذبه عندما يقول : إن هذه الكفاءات ومظاهر الكمال كلها من عند الله ، فنقول له : بل انها مما اختلقتَه أنت ونبع من ذهنك وافكارك ! ! إن هذا الرجل الصادق الامين ، أبى ان ينسب الى نفسه المحاسن التي كان من الممكن بكل سهولة ان ينسبها الى نفسه ، وما كان احد غيره يعرف مصدرها . فلو انه ادعى بناءً عليها ان له شخصية فوق عامة البشر ، لما استطاع احد ان يفند دعواه ، فمن أصدق من هذا الرجل واكثر منه أمانة ونزاهة ؟!

ألا إن هذا الرجل الصادق هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ ، وصدقه هو الدليل على نبوته . إن اعماله الجليلة واخلاقه السامية ، وما حدث في حياته الطيبة من الوقائع ، كلها ثابتة في كتب التاريخ مدونة فيها . فكل من يقرأها بقلب سليم متحرياً الحق والصدق ، يشهد له قلبه من غير ما شك انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي مرسل من عند الله

تعالى ، وان الكلام الذي عرضه على قومه هو هذا القرآن الكريم الذي نتلوه . فكل من يقرأه بقلب رحيب فاهماً معناه ، لا بد له من الاقرار بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ، ولا قِبَل لأحد من البشر أن يأتي بمثله .

ختم النبوة :

هذا ، وينبغي لك الآن ان تعرف انه لا سبيل الى معرفة الاسلام ومعرفة صراطه المستقيم غير تعليم النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم . ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي مرسل الى النوع البشري كافة ، وقد ختمت به سلسلة الوحي والنبوة والرسالة ، والله تعالى قد ارسل بواسطته كل ما أراد ان يرسله الى الناس من الهداية والنور . فكل من كان طالباً للحق وأراد ان يكون عبداً مسلماً لله تعالى ، فلا بد له ان يؤمن بخاتم النبيين ، ويذعن كل الاذعان لما جاء به من الهدى والبينات ، ويتبع طريقه .

الدلائل على ختم النبوة :

إذا أدركت حقيقة النبوة ، تبين لك أن الأنبياء لا يولدون كل يوم ، وكذلك فليس من الضروري أن يكون لكل أمة نبي في كل حين من أحيانها ، فان حياة النبي حياة ما يأتي به من الهداية والتعليم . فهو حي مادامت هدايته حية . قد مات الانبياء الاقدمون ، لأن الناس بدلوا تعاليمهم ومزجوها بما شاؤوا من اهوائهم ، ولا يوجد اليوم كتاب من كتبهم في صورته الأصلية ، ولا يكاد يدّعي أتباعهم أن لديهم كتب أنبيائهم

في صورتها الأصلية ، وكذلك نسى الناس سيرة هؤلاء الأنبيـــاء ، ولا يكادون يعثرون على أحوالهم الصحيحة المعتمد عليها ، حتى إنه لايمكن الجزم بزمانهم او مكانهم الذي ولدوا فيه ، وما جاؤوا به في حياتهم من الأعمال . وكذلك من المستحيل أن يعرف الناس اليوم ، كيف قضى هؤلاء الانبياء أيام حياتهم ، وما ذا أمروا به وماذا نهوا عنه ، وذلك هو موتهم . أما نبينا محمد ﷺ ، فلا يزال حياً لأن هدايته حية ،ولا يزال بأيدينا ذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بالفاظه الاصلية ، وما دب دبيب التغير إلى حرف من أحرفه او نقطةمن نقطه او حركة من حركاته؛ ولا تزال سيرته واحوال حياته وجميـع اعماله واقواله ﷺ مدونـــة محفوظة في الكتب على مامضى عليها من السنين الطوال ، كأننا نشاهد اليوم شخص النبي ﷺ بأعيننا ، ونسمع كلامه بأسماعنا ، وليس في الدنيا رجل قد حوفظ على وقـائع حياتـه كما حوفظ على وقائع حياة النبي محمد ﷺ ، ومن الممكن أن نقتدي به ونتأسى بأسوته في كل شأن من شؤون حياتنا في كل حين من أحياننا ، فذلك هو الدليل على أن لاحاجـة للبشر اليوم إلى نبي مرسل من عند الله تعالى بعد النبي محمد ﷺ .

ولا يرسل نبي بعد نبي إلا لأحد الاسباب الثلاثة الآتية :

١ ــ ان يكون تعليم النبي المتقدم قد امحى وظهرت الحاجة إلى عرضه على الناس مرة اخرى .

٢ ــ أو أن يكون تعليم النبي المتقدم غير كامل فهو بحاجة إلى إتمامه.

٣ ــ أو أن يكون تعليم النبي المتقدم منحصراً في امة خاصة وتكون

أمة أخرى أو سائر الامم بحاجة إلى نبي مرسل مثله[1] .

وقد انعدم كل سبب من هذه الاسباب الثلاثة اليوم :

١ – إن تعليم النبي محمد ﷺ حي ، ولا يزال بأيدينا من الوسائل مايمكن أن نعلم به في كل حين من الاحيان ماكان دينه ﷺ ، وأي هداية جاء بها من عندالله تعالى ، وأي طريق للحياة روجه في الناس . وما هي السبل التي جاهد ليصد الناس عنها . فاذا كانت هدايته لاتزال حية في متناول الأيدي ، فلا حاجة إلى نبي آخر يجددها ويعرضها على الناس مرة أخرى .

٢ – قد نالت الدنيا تعليم الاسلام الكامل بنبوة محمد ﷺ . فلا حاجة اليوم إلى ان يضاف إليه شيء او ينقص منه . وايضاً ليس فيه قصور ينبغي أن يأتي لتلافيه نبي آخر بعده صلى الله عليه وسلم ، فقدزال السبب الثاني ايضاً .

٣ – كانت نبوة محمد ﷺ إلى العالمين جميعاً ، وما كانت منحصرة في أمة دون امة او زمن دون زمن . فلم يبق لامة من الأمم حاجة إلى ان يرسل إليها نبي خاص بها من عند الله ، فهكذا زال السبب الثالث ايضاً .

ولأجل كل ذلك قيل لمحمد ﷺ خاتم النبيين ، اي من جاء آخرهم .

فلا حاجة للدنيا اليوم إلى نبي آخر ، وانما هي بحاجة إلى رجال يتبعون النبي ﷺ ، ويدعون الناس إلى اتباعه ، ويفهمون هديه ﷺ ، ويعملون به . ويقيمون في الارض دَولة ذلك القانون الذي جاء بـه محمد ﷺ من عند الله تعالى .

(١) ويمكن أن يكون السبب الرابع ايضاً ان يرسل مع النبي نبي آخر لتأييده وتصديقه . ولكنا لم نذكره في هذا المقام ، لأنه ماورد له في القرآن إلا مثالان فقط ، ولا يمكن ان يستنتج من هذين المثالين المستثنين ان الله يرسل الأنبياء ويرسل معهم انبياء آخرين لتأييدهم وشد أزرهم على قاعدة مطردة عامة .

الفصل الرابع

الإيمان مفصلاً

الايمان بالله – معنى لااله إلا الله – حقيقة لا إله إلا الله – تأثير عقيدة التوحيد في حياة الانسان – الايمان بملائكة الله – الايمان بكتب الله – الايمان بأنبياء الله – الايمان باليوم الآخر – الحاجة إلى عقيدة التوحيد صدق عقيدة الآخرة – الكلمة الطيبة.

يجدربك أيها الطالب ، قبل أن تتقدم ، ان ترجع قليلاً وتستعرض مرة اخرى ماحصل لك من المعلومات في الفصول السابقة :

١ – لاشك أن الاسلام هو طاعة الله تعالى وامتثال أمره ، ولكنه لما لم يكن هناك من سبيل الى معرفة ذات الله تعالى وصفاته ، والطريق الذي يرضاه من عباده لقضاء حياتهم ، والكيفية الصحيحة لما يحصل لهم في الآخرة من ثواب او عقاب على اعمالهم ، إلا النبي المبعوث من عند الله تعالى ، كان التعريف الصحيح لدين الاسلام « ان تؤمن بتعاليم النبي وتعبد الله وفقاً لهدايته » . فكل من أعرض عن هدي النبي ولم يتخذه وسيلة الى معرفة الله ومعرفة قانونه فليس بمسلم ، وإن ادعى أنه مطيع لله منقاد لقانونه .

٢ ـ لقد كان الأنبياء يأتون إلى مختلف أمم الأرض في الزمن الماضي كل نبي إلى امة على حدة . وكان يبعث بعض الاحيان في امة واحدة عدة أنبياء يأتي بعضهم تلو بعض . فكان الاسلام اسماً لذلك الدين الذي كان يأتي به أي نبي من الأنبياء لأية أمة من الامم . والاسلام وان ظل على حقيقة واحدة في كل زمان وفي كل امة . ولكن كان هنـــاك بعض الاختلاف في شرائع مختلف الامم أي قوانينها وطرق عبادتها . فما كان على امة ان تتبع نبي امة غيرها ، وان كان عليها أن تؤمن بجميع انبياء الله تعالى .

٣ ـ ولما أن بعث محمد ﷺ الى الأرض ، أكمل الله تعالى به تعاليم الاسلام ، الذي أنزله إلى الناس جميعاً ليكون لهم شريعة واحدة بعينها . فما كانت رسالته ﷺ إلى امة خـــاصة من الامم ، او زمن معين من الازمان ، بل هي الى الناس جميعاً أبد الدهر ، وقد نُسخ برسالته جميع ما مضى قبله من مختلف شرائع الاسلام التي جاء بها مختلف الانبياء الى مختلف الأمم . فلن يأتي للناس نبي آخر ولا شريعة اخرى بعـده ﷺ الى يوم القيامة . وما الاسلام الآن الا اتباع محمد ﷺ ، الذي لن يأتي بعده من عند الله رجل يجب الايمانُ به ، ويكون الانسان كافراً اذا لم يؤمن به .

وتعال نبين لك الآن مـا هي الامور التي امرنا النبي ﷺ ان نؤمن بها :

الايمان بالله :

فأول مـا امر النبي ﷺ ان نؤمن به وأهمه هو « لا إله الا الله » .

وهذه الكلمة هي التي يقوم عليها بناء الاسلام وهي التي تميز المسلم من الكافر والمشرك والملحد ، وهي التي تحدث الفرق العظيم بين الانسان المؤمن بها والانسان المعرض عنها . فالذين يؤمنون بها طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرقي في الدنيا والآخرة ، والذين يعرضون عنها طائفة اخرى لهم الخسران والخزي والخذلان في الدنيا والآخرة .

ولا يأتي هذا الفرق العظيم بين الرجلين بمجرد نطق أحدهما بكلمة مؤلفة من اللام والألف والهاء وغيرها من الاحرف الاخرى بلسانه. فانك اذا كنت مصاباً بالبرداء (الملاريا) مثلاً ، فلن تشفى منها ، بمجرد أن تنطق بلسانك : « كينا .. كينا » ولو رددتها الف الف مرة ، دون أن تتناولها فعلاً . وكذلك لا تنفعك هذه الكلمة — لا إله إلا الله — ، إذا نطقت بها من غير ان تشعر بمعناها ، او تعرف ما أقررت به ، او تتفطن الى ما القيت على نفسك من المسؤولية العظمى بهذا الاقرار . الحق أن الفرق الحقيقي لا يحصل ، الا اذا نزل معنى هذه الكلمة في سويداء قلبك ، وأيقنت بصدقها كل الايقان ، ولا يكون اعتقادك بصدقها اقل رسوخاً من اعتقادك ان النار شيء محرق ، أو أن السم شيء مهلك . أي انه كما يحول ايمانك بخاصية النار بينك وبين ان تلقي فيها يدك ، او كما يمنعك ايمانك بخاصية السم ان تذوقه ، كذلك ينبغي ان يحول ايمانك « بلا إله إلا الله » ، بينك وبين ان تأتي بشيء صغير او كبير من الشرك او الكفر أو الالحاد ، في العقيدة أو العمل .

معنى لا إله الا الله :

وعليك ان تعرف الآن ما هو « الاله » . فمعناه لغةً « المستحق للعبادة » اي من كان من حيث كبرياؤه وجلالة شأنه وعلو منزلته ، جديراً بأن يعبده الناس ، ويطأطئوا له رؤوسهم في العبادة . وكذلك يشمل معنى الاله « الحائز لقوة جبارة يتحير العقل الانساني في ادراك مداها » ، وكذلك يتضمن من كان غير محتاج الى احد ، وكان الجميع محتاجين اليه مضطرين الى استعانته في جميع شؤون حياتهم ». وكذلك يدخل في معنى الاله « من كان محتجباً عن الناس ، اي كانت قواه غير مرئية »[1] . وكلمات « خدا » بالفارسية و « ديوتا » بالهندية و « God » بالانكليزية كلها مرادفات لهذه الكلمة – الاله – وكذلك توجد في لغات العالم الاخرى كلمات تشابه هذه الكلمة ايضاً .

وكلمة « الله » علم للحق تعالى . فمعنى « لا إله الا الله » انه ليس في هذا الكون احد جدير بان يعبده الناس ، ويسجدوا له بالطاعة والعبادة ، الا الله تعالى . فما لهذا الكون من مالك ولا حاكم الا هو وحده ، وكل شيء مفتقر اليه مضطر الى استعانته ، وهو وراء الحواس ، ويتحير العقل الانساني في ادراك ذاته .

حقيقة لا اله الا الله :

هذا هو معنى « لا إله الا الله » لغةً . وتعال نبين لك حقيقة هذه الكلمة .

ان كل ما بلغنا من أحوال الانسان منذ أقدم عصور تاريخه ، وما نشهد في هذا العالم من آثار الامم البشرية قديمها وحديثها ، يدلنا على

أن الانسان ماأتى عليه حين من الدهر الا اتخذ فيه لنفسه إلهاً وعبده . وكذلك كل ما يوجد اليوم في مختلف بقاع الارض ، من الأمم والشعوب ، وحشيّها ومتمدنها ، تعتقد لنفسها إلهاً وتعبده ، وهذا أمر يدل كل الدلالة ، على أن تصور الاله متمكن من نفس الانسان ، وان فيه شيئاً يجبره على ان يتخذ لنفسه إلهاً من الآلهة ويعبده . فما سبب كل هذا ؟ يمكنك ان تعرف هذا ، بالقاء نظرة في ذات نفسك ، وفي حال البشر جميعاً .

ان الانسان ما خلق الا على العبدية ، وهو فقير محتاج ضعيف من حيث الفطرة . فكم هناك من شيء يحتاج اليه لاستبقاء حياته ليس في متناول يده ، وقد يناله مرة ويُسْلَبُه اخرى .

وكم هناك من شيء ينفعه ويريد الحصول عليه ، وقد يفوز به مرة ولا يفوز به اخرى . وذلك ان الحصول عليه مما ليس في متناول قدرته .

وكم هناك من شيء يضره ويخيب آماله ويضيع عليه جهوده ويصب عليه المصائب والمحن والامراض ، وهو يريد ان يدفعه عن نفسه ، فيندفع مرة ولا يندفع اخرى . فيدل كل ذلك على ان وقوعه وعدم وقوعه عليه ، أو اندفاعه وعدم اندفاعه عنه ، ليس في مكنة الانسان نفسه .

وكم هناك من شيء تملأه عظمته وجلالة شأنه رعباً : يرى الجبال والأنهار والبهائم الضارية المخيفة ، ويشاهد عواصف الرياح وسيول المياه وزلازل الارض ، ويعرض له كثير من مناظر صعق الرعد واسوداد السحب القاتمة ولمعان البرق ونزول الامطار الغزيرة ، فماأعظم هذه الاشياء وأقواها واكبرها في عين الانسان ، وما أضعفه واحقره واعجزه بازائها . .

(١) راجع كتاب « المصطلحات الاربعة في القرآن » للمؤلف .

ذلك ما يخيل اليه عندما ينظر الى هذه الاشياء ويتأمل شأنها .

فبالنظر الى هذه المناظر المختلفة ، والتأمل في أحوال عجزه وضعفه ، ينشأ في قلبه الشعور بأنه عبد ضعيف محتاج الى غيره . وبنشوء هـــذا الشعور في قلبه ، ينشأ فيه تصور الاله : تتمثل له اليدان اللتان تملكان مثل هذه الاشياء العظيمة ، ويجبره الشعور بعظمتها وجلالة شأنها على أن يطأطيء لها رأسه بالعبادة والطاعة ، ويجبره الشعور بقوتها على ان يعرض عليها حاجته وعجزه وافتقاره ، ويجبره الشعور بقواهما النافعة ، على ان يبسط إليها يده راجيـاً مستغيثاً ، ويجبره الشعور بقواهما الضارة على ان يخافها ويتعوذ من غضبها .

ليظن الانسان ، وهو في أسفل درجات الجهل ، أن هذه الاشياء التي يراها قوية عظيمة ، أو يشعر بنفعها او ضررها لنفسه بوجه من الوجوه ، هي « الآلهة » في حد ذاتها ؛ ومن اجل ذلك تراه يعبد الوحوش والانهار والجبال ويسجد لهـا ، ويعبد الارض والنـــار والمطر والرياح والقمر والشمس والنجوم الخ ...

ولكن عندما ينقشع عنه هذا الجهل قليلًا ، وينفذ إليه قبس من العلم والنور ، يعلم أن هذه الاشياء كلها ضعيفة عاجزة مثله ، وأن المـــوت يدرك أكبر الحيوان وأضخمه كما يدرك أتفه الحيوان واحقره ، وأن الأنهار الكبيرة تجف ويغور ماؤها ولا تزال عرضة للمد والجزر ، وأن الانسان يكسر الجبال وينحتها ، وان الارض لاتقدر ان تخصب وتنبت من بطنها شيئاً بنفسها وإنما تحتاج في كل ذلك الى الماء ، وأنها تجف وتقحل عندما لاتجد المـاء الكافي لها ، وان الماء لايأتي من السماء بنفسه وإنمـــا

يأتي به الهواء الذي يهب ويسوق السحاب ، وان الهواء ليس بقادر على أن يهب ويكون نافعاً او غير نافع للناس بنفسه ، وانما يتوقف كل ذلك على بعض الاسباب الاخرى . وكذلك يرى ان الشمس والقمر والنجوم في السماء مذعنة لقانون مطرد لاتكاد تخرج عليه وتتحرك عنه ولو قيد شعرة . فهنا يتوجه ذهنه الى ان هذه الاشياء الظاهرة ، تستند في عملها الى قوى مستترة في الكون تملكها وتتحكم فيها ، وهي قادرة على كل شيء . ومن هنا تنشأ في ذهن الانسان العقيدة بالآلهة المتعددة الخفية ؛ فيظن أن لكل من النور والهواء والماء والمرض والصحة والجمال والقبح إلهاً خاصاً ، يتصور له في ذهنه صورة خيالية ، يعكف عليها ويسجد لها.

ثم عندما يزداد لديه هذا النور ، نور العلم والمعرفة ، يجد أن في نظام الكون مواظبة على قانون مهيمن وضابطة محكمة قوية ، ويشاهد كيف يهب الهواء ، وينزل المطر ، وتدور السيارات في السماء ، وتتغير الفصول ، وتنضج الأثمار والزروع ، تحت قاعدة مطردة ، وكيف تتحد القوى الكثيرة المختلفة وتعمل متعاونة فيما بينها في هذا النظام . ويرى من إتقان هذا القانون وإحكامه ، أن الوقت الذي قدر لكل عمل من الاعمال في هذا الكون ، تتجمع فيه أسبابه وتتعاون فيما بينها من غير تخلف ولا تأخر . وهكذا فبالنظر في هذا الكون ونظامه المطرد المحكم ، يضطر المشرك إلى ان يُسَلِّم بأن لهذا الكون إلهاً هو أكبر الآلهة يحكمهم ويرأسهم ، لأنه لو كان هؤلاء الآلهة متفرقين مستقلين بأمرهم ، لاختل نظام الكون وعم فيه الفساد والفوضى . وهو يسمّي هذا الاله الاكبر « الله » أو « برميشور » أو « خداي خدايكان » ؛ ولكنه يشرك بعبادته

هؤلاء الآلهة الصغار ، ويظن أن الألوهية كالملوكية الدنيوية ، فكما أن للملك في الدنيا كثيراً من الوزراء يعتمد عليهم ، ويشاورهم في القيام بأمر ملكه ، وينوط بهم كثيراً من مناصبه ، كذلك يستعين هذا الاله الأكبر بهؤلاء الآلهة الصغار في القيام بتدبير هذا الكون ، فلا يمكن الوصول إليه أو القربى عنده ، ما لم يُعمَل على استرضاء هؤلاء الآلهة الصغار ، فعلى الانسان أن يعبدهم ، ويعكف عليهم أيضاً ، ويتقي سخطهم ، ويجعلهم وسيلة للوصول الى الاله الأكبر ، ويبسط اليهم يديه بالاستمداد والاستنصار ، ويعمل على استرضائهم بالنذور والقرابين .

ثم عندما يترقى علم الانسان ويزداد بصيرة ، يأخذ عدد الآلهة يقل عنده شيئاً فشيئاً : يتفكر في الآلهة الذين اتخذهم الجهلاء ، ويتأمل فيهم واحداً واحداً ، ويعلم أنهم ليسوا بآلهة ، بل إن هم إلا عباد كسائر العباد ، إن لم يكونوا أقل منهم قوة وأضعف منهم حيلة ، فيتركهم ويكف عن عبادتهم واحداً بعد آخر ، حتى لا يبقى له منهم في آخر الامر إلا إله واحد ، غير أنه لا يزال في أفكاره كثير من الجهل عن هذا الاله الواحد ، فمن الناس من يظن أن لله جسماً كأجسامنا ، وهو قاعد في ناحية يرى الناس يعبدونه ويسجدون له ؛ ومنهم من يحسب أن لله صاحبة وأولاداً ، وهو يتناسل كما يتناسل الانسان ؛ ومنهم من يزعم أن الله ينزل إلى الارض بصورة البشر ، ومنهم من يقول إن الله قد تنحى عن أمر هذا الكون بعد ما خلقه وجعله يعمل ، فهو الآن مستريح في مكان من الأماكن ؛ ومنهم من يقول انه لا بد عند الله من شفاعة الشافعين من الأولياء والأرواح المقدسة واتخاذهم اليه وسيلة ؛ ومنهم

من في ذهنه صورة لله تعالى ، ويرى من الضروري أن يضعها أمامه عند العبادة ؛ فهكذا يبقى في ذهنه كثير من الأوهام الواهية على كونه معتقداً بالتوحيد ، وهي التي لأجلها يتورط في أوحال الشرك والكفر . وما كل ذلك إلا من نتائج الجهالة .

وآخر هذه الدرجات وأعلاها « لا إله الا الله » . وذلك هو العلم الذي أرسل به الحق تعالى ، أنبياءه ورسله ، إلى عباده في كل قطر وزمان. فقد أوتيه آدم أولاً ، ثم أوتيه نوح وابراهيم وموسى وغيرهم من الانبياء ، وجاء به في آخرهم محمد ﷺ . وهو العلم الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الجاهلية ، وما ابتلي الانسان بكل ما ذكرنا آنفاً من صور الكفر والشرك وعبادة الأصنام ، إلا لاعراضه عن تعليم الانبياء ، واعتماده على حواسه وعقله . وتعال نبين لك ما تتضمن هذه الفقرة الموجزة من حقيقة ثابتة ومعانٍ عالية :

١ — فأول شيء وأهمه هو تصور الألوهية . وذلك أن هذا الكون العظيم ، الذي يعجز العقل الانساني عن تدبره ، وعن معرفة مبدئه ومنتهاه ، والذي قد خُلق ولايزال فيه من الخلق ما لا يأتي تحت الحصر ، والذي يحدث ويتجدد فيه كل يوم من الحوادث والمخترعات ما يبهر العقل الانساني ، لا يمكن أن يكون إلهه إلا حياً لا يموت ولا يُحَدُّ ، صَمَداً لا يحتاج الى غيره ، قادراً على كل شيء ، حكيما لا يخطىء ، عليماً لا يخفى عليه شيء ، غالباً لا يُعصى له أمر ، مالكاً لقوى غير محدودة ، يستمد منه كل شيء في هذا الكون أسبابَ حياته ورزقه ، منزّهاً عن المعايب والنقائص ولا قبل لأحد بالتدخل في أموره .

٢ ـ ولابد أن تكون صفات الألوهية هذه كلُّها متجمعة في ذات واحدة بعينها ، ولا يمكن أن تستوفيها ذاتان اثنتان استيفاءً سويا ، فانه لا يمكن أن يكون الغالبُ للجميع والحاكم على الكل الا ذاتاً واحدةً بعينها . وكذلك من المستحيل أن تتوزع هذه الصفات بين مختلف الآلهة ، فانه اذا كان هذا حاكماً ، وذاك عالماً ، وغيرهما رازقاً ، ثم لم يتعاونوا فيما بينهم فلا بد للدنيا من الدمار والانقراض دفعة واحدة . وكذلك لا يمكن أن تنتقل هذه الصفات من واحد إلى آخر ، أي يكون هذا إلهاً مرة وذاك اخرى ، فأنّى للاله الذي لا يقدر على استبقاء حياته ، أن يمنح الحياة غيره ، وللذي لا يستطيع أن يحافظ على ألوهيته ، أن يحكم هذا الكون ويتصرف فيه . والحق أن الانسان على قدر ما ينال من نور العلم يزداد يقيناً بان صفات الألوهية يجب ألا يستوفيها الا ذات واحدة بعينها .

٣ ـ واذا جعلت في ذهنك هذا التصور الشامل الصحيح للألوهية ، ثم نظرت في هذا الكون ، علمت أن كل شيء تراه أو تحسه بحاسة من الحواس أو تحيط به علماً ، ليس بمتصف بهذه الصفات . وجميع الموجودات في هذا الكون محتاجة الى غيرها مغلوبة على أمرها : تحيا وتموت ، وتصلح وتفسد ، ولا تبقى على حالة واحدة مستقلة ، ولا تقدر أن تأتي بعمل من تلقاء نفسها وحسب مشيئتها ، ولا قبل لها بالخروج على القانون الجاري عليها من فوقها ، وهي تشهد بلسان حالها ، أن ليس أي شيء منها بإله ، ولا يوجد عليه أدنى مسحة من الألوهية ولا دخل له في الألوهية قليلاً ولا كثيراً . فهذا هو معنى « لا إله »

٤ ـ اذا سلبت كلَّ شيء صغير أو كبير الالوهية في هـذا الكون فلا بد لك من الاقرار بان هناك ذاتاً هي فوق كل شيء ، ولا يستوفي صفات الألوهية في الوجود الا هي وحدهـا ، وهذا هو معنى « لا إله الا الله » .

وهذا هو العلم الأكبر ، والمعرفة التامة . كلما ازددت بحثاً في هذا الشأن ، علمت أن هذا هو مبدأ العلم وهذا هو منتهـاه . واذا تناولت علمـاً من العلوم التي تبحث في حقائق هـذا الكون ، كالطبيعيات والكيمياء والهيئة والأرضيات والحياتيات والحيوانيات والانسانيات ، وسبرت غور التحقيق في بابه ، ازددت ايماناً وتصديقاً بأن لا إله الا الله ، وانكشف لك عنـد كل خطوة من خطواتك في ميدان التحقيق العلمي ، ان لا معنى لشيء في هذا الكون ، بعـد إنكار هذه الحقيقة الناصعة المهمة .

تأثير عقيدة التوحيد في حياة الانسان :

هذا ، وتعال نبين لك الآن كيف يؤثر الاقرار بالتوحيد في حياة الانسان ، ولماذا يكتب الاخفاق والخسران لمن لا يؤمن بهذه الكلمة .

١ ـ لا يمكن أن يكون المؤمن بهذه الكلمة ضيق النظر ، فانه يؤمن بالذي خلق السماوات والارض ، ويملك مشارق الارض ومغاربهـا ، وهو رب العالمين يرزقهم ويربيهم . فهو لا يستغرب شيئاً في هـذا الكون بعد هذا الايمان ، لأن كل شيء فيه ملك ورعية لمالكه هو ، وليس في هذا الكون شيء يقوم في وجهه ، ويجـد عليه عاطفة الحب والمواساة والخدمة . بل هو واسع النظر ، لا يضيقه شيء كما لا يضيق

شيء ملك الله تعالى . وذلك ما لا يمكن أن يظفر به رجـــل يقول بآلهة متعددة ، أو يعتقد في الله صفات الانسان الناقصة المحدودة ، أو لا يقول بالله أصلاً .

٢ – إن الايمان بهـــذه الكلمة ينشىء في الانسان من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء . فهو يعلم أن الله الواحـــد هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون من القوى ، وأنه لا ضار ولا نافع الا هو ، وأنه لا محيي ولا مميت الا هو ، وأنه لا صاحب للحكم والسلطة والسيادة الا هو وحده . فهذا العلم اليقيني يغنيه عن غـير الله ، وينزع من قلبه خوف سواه ، فلا يطأطىء رأسه أمام أحـد من الخلق . ولا يتضرع اليه ، ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . ومثل هذه الصفة لا يمكن أن يتصف بها إنسان غير مؤمن بهـذه الكلمة . ومما يستلزمه الشرك والكفر والالحاد أن يطأطىء المرء رأسه لغيره من الخلق ، ويراه قادراً على جلب النفع والمضرة اليه ، ويرهبه ويعلق به آماله .

٣ – وفي الوقت نفسه ، أي مع الانفة وعزة النفس ، ينشىء الايمان بهذه الكلمة التواضع في الانسان . فالذي يقول بأن لا إله الا الله ، لا يمكن أن يكون بطراً متكبراً ، ولا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وثروته وكفاءته . فانه يعلم ويستيقن أن الله قـد وهبه كل ما عنده ، وهو قادر على سلبه إياه اذا شاء . أما الانسان الملحد الذي لا يؤمن بوجود الله ، فهو يبطر ويتكبر ويشمخ بأنفه اذا حصلت له نعمة عاجلة ، إذ أنه يعد هذه النعمة نتيجة لجهوده او كفاءته ، وكذلك

يتكبر المشرك عندما ينال نعمة من النعم الدنيوية ، لانه يظن أن له على آلهته دالة لا يتمتع بها غيره .

٤ – ان المؤمن بهذه الكلمة ، يعلم علم اليقين ، أن لا سبيل له الى النجاة والفلاح ، الا تزكية النفس والعمل الصالح . فانه يؤمن بالاله الغني الصمد العادل الذي لا يمت اليه أحد بصلة ، وما لأحد من دخل أو نفوذ في ألوهيته . أما المشركون والكفار فانما يقضون أيام حياتهم على أمانيّ كاذبة . فمنهم من يقول ان ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه ، ومنهم من يقول نحن ابناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا ؛ ومنهم من يقول إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا ، ومنهم من يقدم النذور والقرابين الى آلهته ويزعم أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء .

فهذه المعتقدات الفاسدة وأمثالها ، لا تزال تركس هؤلاء الناس في أوحال الذنوب والمعاصي ، وهم يَلهُون – اتكالا عليها – عن تزكية نفوسهم وإصلاح اعمالهم . أما الملحدون الذين لا يعتقدون أصلًا ان هناك خالقاً فوقهم ، يسألهم عن اعمالهم ، ويجازيهم عليها ، إن شراً فشر وإن خيراً فخير ، فيحسبون انفسهم أحراراً في الدنيا ، غير مقيدين بقانون من فوقهم ، وانما الشهوات النفسية هي إلههم وهم عبيدها .

٥ – والذي يقول بهذه الكلمة ، لا يتسرب اليه اليأس ولا يقعد به القنوط في أي حال من الأحوال ، فانه يؤمن بالذي له خزائن السماوات والأرض ، والذي لا تعد نعمه وآلاؤه ولا تقدر قواه . فهذا الايمان ينعم على قلبه بطمأنينة غير عادية ، ويملأه سكينة وأملًا ، ولو

اهين في الدنيا وطرد عن كل باب من أبوابها ، وضاقت عليه سبل العيش ، وانقطعت عنه الأسباب المادية طراً ، فان عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه . فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله ، ومستمداً منه المعونة في جميع احواله . فهذه السكينة القلبية والطمأنينة الروحية ، لا يمكن حصولها بشيء غير عقيدة التوحيد ، فبما ان الكفار والمشركين والملحدين تكون قلوبهم ضعيفة ، وهم يعتمدون على القوى المحدودة ، فسرعان ما يحيط بهم اليأس ، ويساورهم القنوط عند الشدائد ، وقد يفضي بهم أحياناً الى الانتحار .

٦ – والايمان بهذه الكلمة يربي الانسان على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل ، فانه حينما يضطلع بمعالي الأمور في الدنيا ابتغاءً لمرضاة الله ، يكون على يقين تام أن وراءه قوة ملك السماوات والأرض ، تؤيده وتأخذ بيده في كل مرحلة من مراحله . فلا يكون رسوخه وثباته وصلابته التي يستمدها من هذا التصور ، بأقل من رسوخ الجبل وثباته وصلابته ، فلا تكاد أي مصيبة من مصائب الدنيا ، ولا أي قوة من قواها المخالفة ، تثبطه عما يكون قد عقد عليه العزم .. وأنّى للشرك والكفر والالحاد بمثل هذه القوة والثبات .

٧ – وهذه الكلمة تشجع الانسان وتملأ قلبه جرأة . وذلك أن الذي يُجبِّن الانسانَ ويوهن عزمه شيآن : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الانسان ، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل . فايمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلب

الانسان كلاً من هذين السببين ويطهره من أدرانها كل التطهير : ينزع الأول بأن يجعله موقناً . ان الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله ، ومستعداً لأن يضحي في سبيل مرضاته بكل غال أو رخيص عنده . وينزع الثاني بأنه يلقي في روعه ، أنه لا يقدر على سلب الحياة إياه إنسان ولا حيوان ، ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر ولا خشب ، وإنما يقدر على ذلك الله وحده ، وهو قد عين لموته وقتاً لاتقدر قوى الدنيا جمعاء أن تستعجله إليه . ومن أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ من يؤمن بالله تعالى وحده ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر الرصاصات والقنابل ، فانه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذه القوة للمشركين والكفار والملحدين ، الذين يعتبرون نفوسهم أعز شيء لديهم ، والذين يعتقدون أن الموت يقبل باقبال العدو ويدبر بادباره ؟ !

٨ — والايمان « بلا إله إلا الله » ، يرفع قدر الانسان وينشيء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم ، وما اليها من الصفات القبيحة والعواطف السافلة الاخرى . ولا يكاد يخطر بباله ، ان يميل للحصول على نجاحه الى طرق دنيئة غير مشروعة ، فانه يعتقد أن ليس الرزق إلا بيد الله وحده ، يبسطه لمن يشاء ويقدره على من يشاء ، وما العزة والقوة والشهرة والسلطة والنفوذ والغلبة إلا بيد الله وحده ، يعطي منها ما يشاء لمن يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وما على الانسان إلا السعي المشروع على قدر وسعه ، ولا ينحصر النجاح أو الخسران إلا في فضل الله وحده ، ولا معطي لما

منع ولا مانع لما أعطى . أما الكافرون والمشركون والملحدون ، فإنما يحسبون نجـــاحهم أو خسرانهم منحصراً في مساعدة القوى الدنيوية أو مخالفتها ، فهم عبيد الطمع والشره ، ولا يتحرجون لنجاحهم من الارتشاء والتملق والمؤامرة وما إليها من الوسائل الدنيئة الاخرى ، ويعضون الأنامل على غيرهم حسداً لهم على نجاحهم ، ولا يتركون حيلة مشروعة أو غير مشروعة لاسقاط محسوديهم أو مخالفيهم ، إلا أتوها بكل وقاحة .

٩ ــ وأهم شيء وأجدره بالذكر في هذا الصدد ، أن الأيمان « بلا إله إلا الله » يجعل الانسان متقيداً بقانون الله ومحافظاً عليه . فإن المؤمن يكون على يقين ، بسبب اعتقاده بهذه الكلمة ، أن الله خبير بكل شيء ، وهو أقرب اليه من حبل الوريد ، وأنه إن أتى بعمل في ظلمة الليل أو حالة الوحدة ، فإن الله يعلمه ، وأنه إن خطر بباله شيء غير جميل ، فإن علم الله محيط به ، وأنه إن كان من الممكن له أن يخفي أعماله على كل واحد في الدنيا ، فإنه لا يستطيع إخفاءه عن الله عز وجل ، وأنـــه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيٍّ كان ، فانه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل ، فعلى قدر ما يكون هـذا الايمان راسخاً في ذهن الانسان ، متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده : لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله ، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله به ، ولو في ظلمة الليل أو حال الوحدة والخلوة ، فإن معه شرطة لا تفارقه حيناً من أحيانه ، وهو يتمثل دائماً أمام عينه تلك المحكمة العليـــا التي لا يكاد الانسان ينفذ من دائرة حسابها ، ومن أجل ذلك فقد جُعلَ الايمـان بلا إله إلا الله أوّل شرطٍ وأهمه ليكون الانسان مسلماً ، فإن معنى المسلم ، كما بينا لك في الفصل

الأول من هذه الرسالة ، هو العبد المطيع المنقاد لله تعالى ، ولا يمكن أن يكون الانسان عبداً مطيعاً منقاداً لله تعالى ، إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله .

وهذا الايمان بلا إله إلا الله ، هو الركن المهم الأساسي من تعليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو مركز الاسلام وأصله ومصدر قوته ، وكل ما عداه من معتقدات الاسلام وأحكامه وقوانينه إنما تقوم على هذا الأساس نفسه ولا تستمد قوتها الا منه . والاسلام لايبقى منه شيء بعد زوال هذا الأساس من مكانه .

الايمان بملائكة الله :

والأمر الثاني الذي أمر النبي ﷺ أن نؤمن به بعد الله عز وجل ، هو وجود الملائكة . وأكبر فائدة لهذا الايمان ، ان تتطهر عقيدة التوحيد من شوائب الشرك وأدرانه وأخطاره كلها .

وقد عرفت من قبل ان المشركين انما أشركوا بالله نوعين من الخلق : نوع من الخلائق التي لها وجود جسدي وتدركها الأبصار كالشمس والقمر والنجوم والنار والماء وكبار الناس الخ ... ونوع من الخلائق التي ليس لها وجود جسماني ، وهي متوارية عن الأنظار وتقوم بتدبير أمور الكون وراء الحجاب ، فبعضها ترسل الهواء والرياح ، وبعضها تسوق السحاب وتنزل المطر ، وبعضها تهيء النور ، الخ ... فالخلائق من النوع الاول ، التي هي ماثلة أمام الانسان ، تنتفي ألوهيتها بمجرد لفظه لا إله إلا الله . أما الخلائق من النوع الثاني التي هي خافية عن الانظار ولا تأتي تحت الحواس فهي التي يولع المشركون بها عامة ، ويرون فيها آلهة ومعبودين لانفسهم ،

أو ذرية لله تعالى ، وهي التي يصورون لها صوراً خيالية ، يسجدون لها ، ويتقربون اليها بالنذور . لهذا فقد بين الاسلام عقيدة مستقلة اخرى لينزه عقيدة الناس بالتوحيد عن هذه الشعبة الثانية من الشرك .

وقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن تلك الخلائق النورانية ، التي يرى فيها البعض لانفسهم أو يجعلونها ذرية لله تعالى ، أنما هي ملائكة الله تعالى ولا دخل لهـــا في ألوهيته في حقيقته الامر ، وهم يطيعون الله تعالى ولا يعصون له أمرا ، والله تعالى يدبر بهم ملكه ، وهم يقومون بأوامره حق القيـــام ، وهم لايقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ، ولا يستطيعون ان يقترحوا على الله شيئـاً بفضل قوتهم ، ولا قبل لهم بأن يشفعوا اليه في أحد . ومن الذل والعار على الانسان أن يعبدهم ويستعينهم ، فإن الله قد أسجدهم لآدم عليه السلام يوم خلقه ، وأعطـــاه من العلم مالم يعطهم ، وجعله خليفته في الارض من دونهم . فأي عار على الانسان أشنع من أن يسجد الملائكة الذين قد سجدوا له من قبل .

فمن جهة نهانا النبي صلى الله عليه وسلم أن نعبد الملائكة ونشركهم بالله في ألوهيته ، ومن جهة أخرى بيّن لنـــا أن هؤلاء الملائكة عباد الله المصطفون ، وهم منزهون عن الأخطاء والآثام ، وقـد فطروا على ألاّ يعصوا الله أمراً ، ويفعلوا كل مايؤمرون به من فوقهم ، وهم منقطعون دائماً إلى العبادة . والله تعالى قد اصطفى منهم ملكاً كريماً – وهو جبريل عليه السلام – ينزل بالوحي على رسله وأنبيائه . وهو الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هؤلاء الملائكة من يلازمون الناس في كل حين من أحيـانهم ، ويشهدون كل ما يأتون به من حركة

حسنة أو غير حسنة ، ويسمعون ويسجلون ما يصدر عنهم من كلام حسن أو غير حسن . وعندهم سجل لأعمال كل واحد من البشر وأقواله ، يعرضونه عليه يوم يقوم بين يدي الله تعالى في محكمته ، وسيشهد فيه كل ما يكون قد جاء به في الحياة الدنيا من سيئة أو حسنة في السر والعلن .

أما حقيقة الملائكة وكيفية خلقهم ، فلم نخبر عنها بشيء ، وإنما أمرنا أن نؤمن بوجودهم ، ولا سبيل الى معرفة كيفيتهم ، ومن الجهالة أن نختلق شيئاً عن كيفية خلقهم من عند أنفسنا ، ومن الكفر أن ننكر وجودهم ، فانه لا حجة لأحد على هذا الانكار ولا معنى لانكار وجود الملائكة إلا تكذيب النبي ﷺ . والحق أننا لا نؤمن بوجود الملائكة إلا لأن نبي الله الصادق المصدوق أمرنا أن نؤمن بذلك .

الايمان بكتب الله :

والأمر الثالث الذي أُمرنا بواسطة النبي ﷺ أن نؤمن به ، هو كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله .

فكما أن الله تعالى قد نزّل القرآن على نبينا محمد ﷺ ، فهو قد أنزل كتبه ـ من قبل ـ على من سبقه من أنبيائه ؛ وقد أخبرنا بأسماء بعض هذه الكتب ، كصحف ابراهيم التي أنزلت على ابراهيم عليه السلام ، والتوراة التي أوتيها موسى عليه السلام ، والزبور الذي أرسل به داود عليه السلام ، والانجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام . أما الكتب الاخرى التي أُوتيها سائر الانبياء ، فلم نخبر عن أسمائها ، ولا نكاد نقطع عن كتاب ديني آخر بأنه كان أو لم يكن من عند الله تعالى . غير أننا نؤمن أن كل كتاب نزل من عند الله تعالى هو الحق .

إن هذه الكتب التي أخبرنا بأسمائها ، لم يبق لصحف ابراهيم منها وجود في الدنيا . أما التوراة والزبور والانجيل ، فانها وإن كانت لا تزال عند اليهود والنصارى ، ولكنهم قد حرّفوها كثيراً وبدّلوا كلِمَها عن مواضعها وحذفوا منها وأضافوا اليها كثيراً من الآراء من عند أنفسهم ، حتى إن اليهود والنصارى أنفسهم ، يعترفون اليوم ، أنه ليست عندهم تلك الكتب الأصلية التي نزلت على موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، وانما بأيديهم تراجمها ، التي ما زالت هي نفسها منذ قرون عرضة للتغيير والتبديل والزيادة والنقص ، وكذلك يظهر بمجرد قراءة هذه الكتب أن فيها كثيراً من الامور التي لا يمكن ان تكون من عند الله . فليست هذه الكتب الموجودة اليوم في الدنيا ، نفس تلك الكتب التي أنزلها الله تعالى على موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، وقد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس ، حيث لم يبق بأيدي الناس من وسيلة لتمييز كلام الله من كلام الناس . فما أُمرنا بالايمان بالكتب الماضية ، الا من حيث إن الله كان أيضاً أرسل رسله بأحكامه الى كل امة من الأمم الماضية قبل القرآن ، وإنه ما كانت هذه الأحكام الا من عند الله الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ، وإنما جاء ليحيي ذلك الهديَ الذي ناله الناس في الزمن الماضي ثم أضاعوه أو بدلوه أو خلطوه بكلام الناس .

والقرآن هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى ، والفرق بينه وبين الكتب الماضية من عدة وجوه :

١ ـ ان الكتب التي نزلت قبل القرآن ، قد ضاعت نسخها الاصلية ، وما بقي بأيدي الناس إلا تراجمها كما عرفت آنفاً ، أما القرآن ، فلايزال

محفوظاً بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها من عند الله تعالى ، وما دب دبيب التغير الى حرف من أحرفه او حركة من حركاته .

٢ ـ قد خلط الناس كلامهم بكلام الله في هذه الكتب ، ففي كتاب واحد يوجد كلام الناس ، والتاريخ القومي ، وسِيَرُ الأكابر والانبياء ، والتفسير ، والمسائل الشرعية التي استنبطها الفقهاء ، حيث لا يمكن ان يعرف فيه كلام الله من كلام غيره . أما القرآن ، فنجد فيه كلام الله تعالى خالصاً نقياً غير مشوب بشيء من كلام آخر . وكل ما كتبه المسلمون في التفسير او الحديث او الفقه او سيرة الرسول ﷺ او سيرة الصحابة او تاريخ الاسلام ، لم يخلطوه بالقرآن ، وكله مدون محفوظ في كتب غير القرآن .

٣ ـ ان جميع الكتب التي توجد اليوم عند مختلف أمم الارض ، لايمكن أن يُثبت عن واحد منها باستناد تاريخي ، أنه نزل على النبي الذي ينسب اليه ، بل هناك كثير من الكتب الدينية ، لا يعرف عنها اصلاً على من نزلت وفي أي زمن نزلت . أما القرآن ، فقد تضافرت الشواهد التاريخية القوية القاطعة بنزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، مما لا يكاد يشك فيه أحد ، بل من المعلوم فوق ذلك عن كل آية منه ، متى وأين نزلت عليه صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ إن اللغات التي نزلت بها الكتب القديمة ، قد أكل عليها الدهر وشرب ، وأصبحت في خبر كان منذ زمن غير يسير ، فلا يوجد المتكلمون بها في أي بقعة من بقاع الارض اليوم ، وقليل جداً أيضاً أولئك الذين يقدرون أن يفهموها . ولو أن مثل هذه الكتب كانت باقية بأشكالها

الأصلية اليوم ، لكان من المستحيل للناس أن يفهموها ويتبعوا أحكامها. أما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، فلغة حية يتكلم بها عشرات الملايين من البشر ويفهمها مئات الملايين منهم في هذه المعمورة ، وهي تُعلّم وتُدرَّس في كل قطر من أقطار العالم ، ومن السهل لكل من أراد تعلمها أن يتعلمها ، ومن الممكن لمن لايتسع وقته لتعلمها أن يجد في كل مكان من يفهمه معاني القرآن وأحكامه .

٥ – وجميع ماعند مختلف امم الارض اليوم من الكتب الدينية ، إنما وُجِّه الكلام في كل واحد منها الى أمة خاصة دون سائر الامم . وكذلك اذا نظر المرء فيما يوجد في هذه الكتب من الاحكام ، علم من غير شك ، أن أكثرها كان لزمن خاص ، جاءت وفقاً لأحواله ومطالبه وحاجاته ، ولا حاجة للناس اليها ولا يمكن العمل بها في هذا الزمان ، فالظاهر أن هذه الكتب كانت خاصة بزمن دون سائر الأزمان وأمة دون سائر الامم ، وما كان كتاب منها للناس جميعاً . وكذلك فان الامم التي جاءت لها هذه الكتب ، ما كانت لها الى الأبد ولكن كانت لها لمدة محدودة من الزمن . ولكنك اذا نظرت بهذه النظرة في القرآن ، علمت أن الخطاب موجه في كل مكان منه الى الانسان من حيث جنسه ، ولا يخطر ببال القارىء عند أيّة آية من آياته ، انها خاصة بأمة دون سائر الامم . وكذلك يمكن العمل بكل ما جاء في القرآن من الاحكام في كل قطر وفي كل زمان ، مما يشهد شهادة ناطقة بأن القرآن للعالمين جميعاً إلى أبد الدهر .

٦ – والكتب القديمة وان جاء كل كتاب منها مشتملاً على أمور من

الصدق والخير ، و لقّن الانسان فيه مبادىء الاخلاق والصلاح . وأرشد الى طريق مستقيم لقضاء حياته وفقاً لمرضاة الله ، ولكن أي كتاب منها لم يستوف الحسنات والفضائل كلها حيث لم يترك منهـــا شيئاً . والذي يمتاز به القرآن عن سائر هذه الكتب انه قد استجمع فيه كل ما كان في الكتب القديمة من الفضائل منتثرة ، وقد بُيّن فيه ما لم يأت فيها من الحسنات والخيرات .

٧ – ولاجل ما كان من الانسان من التدخل في الكتب الدينية القديمة ، تسرب فيها كثير من الامور التي لاتوافق العقل والحقيقة وتقوم على الظلم والشطط وتفسد على الانسان عقيدته وعمله ، بل تحتوي بعض هذه الكتب على أمور من قبيل الفحشاء والمنكر والانحلال الخلقي . لكن القرآن منزه كل النزاهة عن مثل هذه الامور وليس فيه شيء يخالف العقل او يمكن تخطئته بالبرهان او التجربة ، ومـــا في أمر من أوامره او حكم من أحكامه ظلمٌ او اعتداء ، وما فيه شيء يضـل الانسان ، وليس فيه عين ولا أثر للفحشاء والمنكر وعدم التقيد بالقيود الخلقية ، وكله مليء من أوله الى آخره بالحكمة العالية ، والموعظة والحسنة ،وتعليم الناس العدل ، وارشادهم الى الصراط المستقيم والى أحسن الأحكام والقوانين .

فهذه هي المزايا ، التي لأجلها أمر اهل الارض جميعاً أن يؤمنوا بالقرآن ، ويتبعوه وحده دون سائر الكتب، فان أقصى ما كان أويمكن أن يكون الانسان محتاجاً اليه من الارشاد والهداية ، لقضاء حياته

حسب مرضاة الله تعالى ، قد بينه القرآن بدون نقص ولا زيادة ، فلم يعد الانسان بحاجة الى كتاب آخر بعد ماجاءه القرآن .

أمّا وقد عرفت الفرق بين القرآن وبين سائر الكتب ، فقد أصبح من السهل عليك ان تتبين ماينبغي ان يكون من الفرق بين الايمان بالقرآن والايمان بسائر الكتب . فما الايمان بالكتب القديمة إلا الى حدّ التصديق ، أي أن هذه الكتب كانت من عند الله ، وكانت صادقة ، وما جاءت الا لنفس الغرض الذي جاء لاتمامه القرآن . أما الايمان بالقرآن ، فهو من حيث انه كلام الله الخالص ، وهو الحق ، وكل لفظ منه محفوظ ، وكل كلمة منه صادقة ، واتباع كل امر من اوامره فريضة ، وكل ما يخالف القرآن ويضادّ أحكامه جدير بالرفض .

الايمان برسل الله :

لقد أُمرنا بعد الايمان بكتب الله أن نؤمن برسله :

وقد بينا لك في الفصل السابق ان جميع امم الارض قد جاءها رسل الله تعالى ، ودعوا الناس الى الاسلام الذي دعاهم اليه في ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأنه ما كانت جميع رسل الله وأنبيائه الا من طائفة واحدة بعينها ، فمن كذب أحداً منهم فقد كذبهم جميعاً ، ومن صدّق أحداً منهم ، أصبح من المحتوم عليه ان يصدقهم جميعاً ، وهب ان لديك عشرة رجال لايقولون الا شيئاً واحداً ، فاذا صدقت واحداً منهم ، فقد صدقتهم جميعاً . وان كذبت واحداً منهم ، ففد كذبتهم جميعاً ، لانهم يقولون بما يقول به . فالذي يفرق بين رسل الله ، ويؤمن ببعض ولا يؤمن ببعض ، هو الكافر حقاً .

وقد بين لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ، أن عدد من أرسل الى مختلف الأمم من أنبياء الله مائة وأربع وعشرون ألفاً (١٢٤,٠٠٠) من النفر. ولو أنك تفكرت في عمر هذه الدنيا ، وما خلا فيها الى الآن من الأمم والشعوب ، ما رأيت هذا العدد لرسل الله كثيراً ؛ أما الذين قد قصهم القرآن علينا من هؤلاء الرسل ، فيجب الايمان بهم صراحةً ، وأما الذين لم يقصصهم علينا منهم ، فقد أُمرنا أن نؤمن بهم ، لأن جميع من أرسلهم الله تعالى الى عباده لتعليمهم ودعوتهم إلى سواء السبيل ، كانوا صادقين . فنحن نؤمن بكل من عسى أن يكون جاء من رسل الله ، الى بلاد الهند والصين وإيران ومصر وافريقية وأوربة ، وسائر نواحي الارض وأرجائها، ولكننا لا نستطيع أن نقول عن فلان منهم انه كان أو لم يكن رسولاً من الله ، وذلك أننا لم نخبر عن ذلك بشيء . غير أنه لايجوز لنا بحال من الأحوال أن نذم أو نذكر بالسوء أحداً من الذين يتبعهم رجال مختلف الديانات في الأرض ، وما أدرانا إن كانوا من رسل الله حقاً ، ثم بدل الناس دينهم من بعدهم ، كما بدل أتباع موسى وعيسى عليهما السلام دينهما الحق من بعدهما ؛ وإن كان لنا رأي نظهره ، فليكن عن طقوس دياناتهم ورسومهم في وضعها الحاضر ، ولنسكت سكوتاً تاماً عمّن أسسوا هذه الديانات ، لئلا يصدر عنا شيء يخالف الأدب في شأن رسولٍ من رسل الله.

ولا فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين سائر الأنبياء ، من حيث إنهم كانوا جميعاً صادقين مرسلين من عند الله ، هادين الى صراطه المستقيم، وأننا أُمرنا ان نؤمن بكل واحد منهم ، غير أن الفرق بينه وبينهم —على هذه المماثلة — من ثلاثة وجوه :

١ – أرسل هؤلاء الأنبياء الى امم خاصة ولأزمان محدودة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أُرسل إلى العالمين جميعاً ، وحتى يوم القيامة ، كما عرفت في الفصل السابق .

٢ – لقد انقرضت تعاليم هؤلاء الرسل انقراضاً تاماً ، او لم تبق محفوظة بأشكالها الاصلية ان كانت قد بقيت في هذه الدنيا . وكذلك لا توجد سيرهم وأحوالهم ، وقد ضاعت حقيقتها في روايات الناس وأقاصيصهم التي اختلقوها من عند أنفسهم عن حياة هؤلاء الرسل . فلا يمكن أن يتبعها المرء ، وإن ودّ ذلك وسعى اليه . أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فتعاليمه وسيرته وأقواله وأعماله وأخلاقه وعاداته وخصاله ، كلها مدونة في الكتب في متناول أيدي الناس . فالحق أن الحي الوحيد من بين جميع رسل الله وأنبيائه هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وحده الذي يمكن للناس أن يتبعوه ويهتدوا بهديه .

٣ – إن تعاليم الاسلام الذي جاء به الأنبياء الاقدمون ، ما كانت تعاليم كاملة ، فما جاء نبي من هؤلاء الانبياء إلا أصلح تعاليم الانبياء الاقدمين وأحكامهم وقوانينهم وطرق هدايتهم ، وحذف منها وأضاف اليها . فهكذا كان عامل الرقي والكمال والاصلاح يعمل عمله قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لذا لم يحفظ الله تعالى تعاليم هؤلاء الرسل بعد مضي زمانهم ، فإن الناس ما كانوا بحاجة الى تعليم ناقص سابق اذا جاءهم تعليم كامل جديد ، وأخيراً أُوتي النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعليمَ الاسلام الكامل الناضج من كل جهة . وهكذا نُسخت شرائع سائر الانبياء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن اتباع الناقص بإزاء الكامل مما يخالف العقل .

ومن اتبع محمداً ﷺ ، فقد اتبع الأنبياء جميعاً ، ذلك لأن كل ما كان من الخير في تعاليم الأنبياء الأقدمين يوجد اليوم في تعليم محمد ﷺ ، ومن أعرض عنه واتبع نبياً غيره ، فقد حُرم كثيراً من الخيرات التي أضيفت فيما بعد ، لم تكن في تعليم من التعاليم الماضية .

ومن أجل ذلك لابد للبشر جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويتبعوا تعليمه ، وعلى المسلم أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من ثلاثة وجوه :

١ ـ أنه رسول صادق من عند الله تعالى .

٢ ـ وأن هدايته كاملة وليس فيها شيء من النقص او الخطأ .

٣ ـ وانه آخر نبي جاء الناس من عند الله تعالى الى أية امة من الامم الى يوم القيامة . ولا يأتي بعده رجل يكون الايمان به من شرط الاسلام ويكون من لا يؤمن به من الكافرين .

الايمان باليوم الآخر :

والأمر الخامس الذي أمرنا ان نؤمن به هو اليوم الآخر . وما علينا أن نؤمن به عن ذلك اليوم هو :

١ ـ ان الله سيمحو هذا العالم ، وكل مافيه من الخلائق ، في يوم يعرف بيوم القيامة .

٢ ـ ثم يحييهم ـ سبحانه وتعالى ـ مرة اخرى ، ويجمعهم بين يديه ، وذلك هو الحشر أو البعث .

٣ ـ ثم يقدّم الى محكمة الله تعالى ، كل مايكون الناس قد كسبوه

من خير أو شر في حياتهم الدنيا ، بدون نقص ولا زيادة .

٤ – والله تعالى يزن لكل واحد من البشر اعماله الصالحة والسيئة ، فمن رجحت كفة اعماله الصالحة غفر له ، ومن رجحت كفة أعماله السيئة عاقبه .

٥ – والذين يغفر لهم يدخلون الجنة ، والذين يعاقبهم يدخلون النار .

الحاجة إلى الايمان باليوم الآخر :

وهذه العقيدة بالآخرة ، عرضها محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان سائر الانبياء والرسل يعرضونها على الناس ، وما زال الايمان بها شرطاً من شروط الاسلام في جميع الازمان . وقد كفَّر الانبياء كلهم من لايؤمن بها أو من يشك فيها ، فإنه لامعنى للايمان بالله وكتبه ورسله بدون هذه العقيدة . وهذا أمر واضح لا إشكال في فهمه . فانه اذا طلب إليك أن تفعل شيئاً ، فأول سؤال ينشأ في ذهنك : « أية فائدة ترجع اليك إذا فعلته ، وأي ضرر يصيبك اذا لم تفعله » .. لماذا ينشأ هذا السؤال في ذهنك ؟ ذلك لأن الانسان يرى بسابق فطرته ، أن لاطائل تحت أمر لايرجع اليه بجدوى . ولأجل ذلك لاتنشط لعملٍ لاترجو منه فائدة لنفسك ، ولا تعزف عن عمل تستيقن انه لن يصيبك منه ضرر . وهذه هي حال الريب والشك : إن كل شيء ترتاب في فائدته لايمكن أن ترغب فيه وتنشط للقيام به . وكذلك كل شيء تشك في ضرره ، لايمكن ان تحاول اجتنابه والابتعاد عنه . انظر الى الاطفال لماذا يلقون بأيديهم الى النار ؟ ذلك لأنهم لايعلمون علم اليقين أن النار شيء محرق ؛ ولماذا يفرون من الدرس وطلب العلم ؟ ذلك لأن فوائد

العلم التي يحاول كبارهم أن يلقوها في أذهانهم ، لاتقبلها نفوسهم ولا تلج قلوبهم . وكذلك الرجل الذي لا يؤمن بالآخرة ، يرى الايمان بالله واتباع أوامره في الدنيا عبثاً لا طائل تحته : فلا فائدة في نظره لطاعة الله ولا ضرر لمعصيته . فكيف يرجى منه بعد ذلك أن يزعج نفسه ويكرهها على طاعة اوامر الله التي أنزلها على رسله ،وفي كتبه ؟ وهو ولو آمن بالله ، فلا معنى لايمانه ، لأنه لن يطيع الله ولن يسير في حياته وفقاً لمرضاته تعالى .

ولا يقف الامر عند هذا الحد فحسب ؛ فان إنكار الانسان للحياة الآخرة أو إقراره بها له تأثير بعيد فيصل في حياته ، فان الذي فطر عليه الانسان ـ كما بينا لك من قبل ـ ألاّ يصبو الى عمل أو يعرض عنه الا على قدر مايرى فيه لنفسه من فائدة أو ضرر . فأنىّ للذي لا يعدو نظره فائدة هذه العاجلة وضررها ، ان ينشط لعمل صالح لايرجو منه فائدة في هذه الدنيا ، أو يجتنب عملاً سيئاً لايخاف منه على نفسه ضرراً في هذه الدنيا ؟ أما الذي ينفذ نظره الى نتائج الاعمال ولا يقف عند ظواهرها ، فلا يرى نفع هذه العاجلة أو ضررها الاشيئاً عارضاً ، فيؤثر الحق على الباطل والخير على الشر ، نظراً الى فائدة الآخرة أو مضرتها الأبدية ، ولو كان الخير يرجع على نفسه بأفدح ضرر والسيئة بأعظم منفعة في هذه الدنيا . فانظر الى مابين هذين الرجلين من الفرق العظيم والبون الشاسع ... فالخير في نظر الأول مايحصل نفعه في هذه الحياة الفانية ، كأن ينالَ ثروةً ، أو ارضاً ، أو سمعة وحسن أحدوثة بين الناس ، أو لذة أو مسرة أو شيئاً مما يروي غليل شهوة من شهوات نفسه ؛ والشر عنده ماينتج ، او يخشى أن ينتج ، شيئاً مكروهاً في هذه

الدنيا ، كالنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، أو انحراف الصحة ، أو سوء الأحدوثة بين الناس ، أو عقوبة الحكومة ، أو شيء من قبيل الحزن أو الضجر . بينما الخير في نظر الرجل الثاني مايرضي الله والشر مايسخطه ؛ وهو يرى ان الخير خير في كل حال ، وإن لم ينفعه في هذه الحياة الدنيا وابتلاه بكل ضرر فيها ، ويستيقن ان الله سيعطيه نفعاً أبدياً عنده في الآخرة ، وأن الشر شر في كل حال ، وان لم يذق أو لم يخف ان يذوق وباله في هذه الحياة الدنيا ، ووجد فيه المنفعة كل المنفعة ، ويعلم علم اليقين انه إن فاته العقاب على اعماله السيئة في هذه الدنيا ، فلا مفر له منه في الآخرة .

وبموجب هذين الاتجاهين المختلفين ، يختار الانسان أحد طريقين مختلفين في حياته . فالذي لايؤمن بالآخرة ، لايمكن ان يخطو ولو خطوة واحدة في طريق الاسلام ، فاذا قال له الاسلام « أدّ الى الفقراء والمساكين زكاة ماعندك من الأموال تبتغي بها وجه ربك » ، قال إن الزكاة تنقص من أموالي ، فسآخذ الربا عليها بدلاً من أداء زكاتها ، وسأرفع أمر الذين يستقرضون مني الى المحكمة ، وعندما تقضي لي عليهم أصادر مايملكون من البيوت ومافيها من الاثاث ... واذاقال له الاسلام « صدق واجتنب قول الزور ولو كان في الصدق افدح الضرر وفي الكذب اعظم المنفعة » ، قال : ولمَ اصدق اذا كان يضرني ؟ ولمَ أجتنب قول الزور إذا كان ينفعني ولا اخاف منه سوء الاحدوثة بين الناس ؟ .. يمر بطريق غير مأهول ويجد فيه شيئاً ثميناً ، فيقول له الاسلام « أن ليس ذلك من مالك فلا تأخذه » . ولكنه يقول : لماذا أترك شيئاً جاءني عفواً من غير كد

ولا بذل ثمن ؟ وليس في هـــذا الطريق من يراني حتى يرفع أمري إلى الشرطة ، أو يشهد عليّ في المحكمة ، أو يشوه سمعتي بين الناس ، فماذا علي إذا انتفعت من هذا المال واستعملته في مصلحتي ؟ ... ويودع عنده رجل ماله ويأتمنه عليـــه ثم يموت ، فيقول له الاسلام « لا تخن ما عندك من مال صاحبك ، ورُدَّ أمانته الى اهله » ، ولكنه يقول : لماذا ؟ هل عند احد شهادة بأن الميت أودع عندي ماله ؟ أم هل يعلم ورثتـــه ذلك ؟ فاذاً امكنني أن آكل هذا المال بكل سهولة ، ولا أخاف على نفسي محاكمة ولا سوء سمعة ، فما أسفهني ان رددته الى أهله ! . وجملة القول ان الاسلام يرشده الى طريق مستقيم في كل خطوة من خطوات حياته ، وهو يعـارضه ، ولا يختـار الا طريقاً موافقاً لهواه ، لأن قيمة كل شيء في الاسلام تبع للنتائج الابدية في الآخرة . ولكن نظره لا يعدو النتائج الحاصلة في هذه الحياة الدنيا . ومن هنا تعرف لماذا لا يمكن للانسان ان يكون مسلماً بدون الايمـــان بالآخرة ؛ بل الحق أن إنكار المرء للحياة الآخرة ، يحطه من درجة الانسانية الى الدرك الاسفل من البهيمية ، بلْهَ أن يبقى مسلماً .

صدق عقيدة الآخرة :

قد عرفت عقيدة الآخرة ، وحاجة الانسان إليهـــا ، وفائدتها له . وها نحن أولاء نبين لك الآن على وجه الايجاز ، ان العقيدة التي بينهـــا الرسول ﷺ عن الآخرة ، هي الحق بموجب العقل أيضاً . وهـــذه العقيدة ، وان كان إيماننا بها اعتماداً على رسول الله ، وتصديقاً بما جاء به ،

ولا نعول في بابها على العقل ، ولكننا اذا عملنا فكرنا قليلاً ، علمنا أنها أقرب عقيدة للعقل في باب الآخرة .

إن في الدنيا ثلاث عقائد عن الآخرة وحياتها :

١ ـ تقول طائفة إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا ونموت وما لنا من حياة بعد الموت ، وهذه عقيدة الملحدين ، الذين يدَّعون أنهم علمـــاء الطبيعيات (Science) .

٢ ـ وتقول طائفة أخرى إن الانسان يتتابع عليـه الموت والحياة مرة بعد مرة في نفس هذه الدنيا لينال جزاء أعماله . فان كانت أعماله في حياته الاولى سيئة ، يأتي في حياته التالية حيواناً من الحيوانات ، كالقرد أو الكلب أو الهر أو بصورة شجرة من الأشجار ، أو كرجل من أحط الناس . وإن كانت أعماله صالحـــة ، ارتفعت به المنزلة وعلت به الدرجة . ويقول بهذه العقيدة بعض من لم تنضج فكرتهم الدينية .

٣ ـ وتؤمن طائفة ثالثة باليوم الآخر ، والحشر ، والحضور بين يدي الله ، ومجازاته للناس على أعمالهم . فهذه هي العقيدة التي دعا إليها الأنبياء عليهم السلام جميعاً .

ولننظر الآن قليلاً في هذه العقائد الثلاث :

فالذي يقول به رجال الطائفة الاولى ، ويعتمدون عليه في إثبـات عقيدتهم ، انهم ما رأوا إنساناً أوتي الحياة بعد موته ، بل إنما يأكله التراب وتفنيه الأرض بعد الوفاة ... أفهذه حجة من الحجج ؟ إن غاية ما يمكنك أن تقوله إذا كنت لم تر أحداً أوتي الحياة بعد موته ، انك لا تعرف ماذا يكون بعد الموت . أما دعواك أنك تعرف ان لا حياة بعد الموت ،

فلا دليل عندك عليها . فرجل من أهل القرية لم يشاهد الطيارة بعينه ، يمكنه القول أنه لا يدري ما هي الطيارة ، ولكنه إذا قال أنه يعرف أن ليس في هذه الدنيا شيء يعرف بالطيارة ، أحمقه الجميع ، فانه ليس معنى عدم رؤية شيء أنه لا وجود له . بل لو أن أهل الارض قاطبة أجمعوا على أنهم لم يروا شيئاً من الاشياء ؛ فلا تجوز لهم الدعوى أن لا وجود لذلك الشيء ، أو لا يمكن أن يكون له وجود .

أما العقيدة الثانية ، فتقول ان الانسان هو انسان في حياته الحاضرة، لأنه عمل الصالحات عندما كان حيواناً في حياته الاولى ، وأن الحيوان هو حيوان في حياته الحاضرة . لأنه عمل السيئات عندما كان انساناً في حياته الاولى . وبكلمة أخرى ان كون الانسان إنساناً ، والحيوان حيواناً ، والشجر شجراً ، إنما هو نتيجة لأعماله الصالحة أو السيئة الماضية في حياته الاولى . وهكذا يتتابع عليه الموت والحياة في هذه الدنيا .

والسؤال الذي ينشأ بهذا الصدد ، هو « أي شيء كان في هذه الدنيا في بدء الأمر ؟ » فان قلت « الانسان » فلا بد أن يكون حيواناً أو شجراً قبل ذلك، وإلا فعلى أي عمل صالح أنعم عليه قالب الانسان هذا؟ وان قلت « الحيوان أو الشجر » ، فلا بد ان يكون انساناً قبل ذلك . وإلا فما هي الاعمال السيئة التي اقترفها وأوتي قالب الحيوان أو الشجر جزاءً عليها ؟ فالحق أن القائلين بهذه العقيدة لا يمكنهم أن يقرروا بدء الخلق في هذا العالم من جيل معين معلوم ، فان كل جيل من أجياله ، لا بد أن يكون سبقه جيل آخر ، حتى يكون الجيل الآخر نتيجة لأعمال الجيل السابق . وهذا مما يخالف العقل ولا يوافقه .

خذ الآن العقيدة الثالثة ، فأول ما جاء في هذه العقيدة ، ان الله تعالى قدر يوماً لتقوم فيه الساعة على هذا الكون ، فتبدل الارض غير الارض والسماوات . فهذا مما لا يرتاب فيه عاقل ، وعلى قدر ما يزداد المرء تفكراً في معمل الكون هـذا ، يزداد معرفة بأنه لا بقاء له . فان جميع القوى والأدوات التي فيه ، محدودة لا بد لها من الفناء يوماً من الايام ، ولأجل ذلك فقد أجمع علماء العلوم الطبيعية على أن هذه الشمس ستبرد يوماً من الايام وتفقد نورها ، وأن هذه النجوم والسيارات ستتصادم فيما بينهـا وتتقرض هذه الدنيا .

ثم جاء في هذه العقيدة أن الانسان سيؤتى الحياة الاخرى ، أفهذا من المستحيل ؟ فان كان ذلك كذلك ، فكيف حصلت للانسان هـذه الحياة الدنيا ؟ .. لا ريب أن الله الذي خلق الانسان في هـذه الدنيا ، قادر على أن يخلقه مرة أخرى بعد موته .

ثم جاء في هـذه العقيدة ان الانسان تسجل عليه أعمـاله الحسنة أو السيئة وستعرض عليه في كتاب يلقاه منشوراً يوم القيامة . فهذا ممـا نجد اليوم ما يثبته :

كان الناس يظنون في الزمن الماضي ان الصوت الذي يخرج من أفواهنا ، يندمج في الهواء ويضمحل فيه بعد ما يحدث فيه شيئاً من التموج ، ولكن قد عرف أخيراً ان لكل صوت أثراً يتركه فيما حوله من الاشياء ، ومن الممكن ضبطه وإحياؤه فيما بعد ، وعلى هذا المبدأ قد أوجد الانسان الحاكي (الغراموفون) ، مما يدل على أن كل حركة تصدر عنا في هذه الدنيـا ، تسجل في أشياء تصدمها بوجه من الوجوه .

وإذا علمنا هذا فقد علمنا علم اليقين ، ان جميع أعمالنا في هذه الدنيا مسجلة مدونة ، ويمكن إحياؤها وإحضارها مرة أخرى .

والأمر الرابع الذي جاء في هذه العقيدة ، ان الله تعالى يجازي عباده على أعمالهم بالحق يوم يحشرهم : ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . من ذا الذي يمكن أن يقول إن هذا مستحيل ؟ وأي شيء فيه يخالف العقل ؟ بل العقل نفسه يقتضي أن يحشر الله عباده يوماً ويحكم بينهم بالحق . ذلك بأننا نشاهد أن الرجل يعمل صالحاً ولا ينال ثوابه في هذه الدنيا ، أو يعمل السوء ولا يلقى عقابه في هذه الدنيا . بل نحن نشاهد الصالحين قد يصيبهم الضرر ، والاشرار قد يعيشون عيشة الرفاهة ويرفلون في النعم ، فيتطلب العقل بنفسه في مثل هذه الحوادث أن يلقى الرجل جزاءه كاملاً في كلتا الحالين : على أعماله الصالحة أو السيئة .

والأمر الأخير في هذه العقيدة وجود الجنة والنار . فما وجودهما بمستحيل . فاذا كان الله تعالى قادراً على أن يخلق الشمس والقمر والمريخ والارض ، فكيف يعجز عن خلق الجنة والنار ؟ والله تعالى عندما يحشر الناس في محكمته ينبغي أن يكون للذين يثيبهم مقام عزة وكرامة ونعيم ومسرة ، وللذين يعذبهم مقام ذل وعذاب وحزن وألم .

تفكر في هذه الامور كلها ، تعرف من دون شك أن هذه العقيدة هي أقرب عقيدة للعقل ، من بين جميع العقائد ، التي توجد اليوم في الدنيا ، عن حياة الانسان بعد موته ، وليس فيها شيء يخالف العقل ، أو يكون من المستحيل وجوده .

ثم إذا كان هذا الأمر قد بلغنا على لسان محمد ﷺ — وهو في صدقه

وأمانته وعفافه حيث قد عرفت – وفيه الخير كل الخير لأنفسنا ، فان العقل يقتضي أن نؤمن به ، ولا يقتضي أن نرتاب فيه من غير حجة ولا برهان .

الكلمة الطيبة :

هذه هي العقائد الخمس[1] التي بني عليها الاسلام ، وقد لخصت في كلمة واحدة هي « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فاذا قلت « لا إله إلا الله » ، أقررت بعبوديتك لاله واحد دون سائر الآلهة الباطلة . وكذلك إذا قلت « محمد رسول الله » صدقت بأن محمداً ﷺ هو رسول من الله إلى عباده ؛ والذي يستلزمه تصديقك بالرسالة المحمدية ، أن تؤمن بكل ما بينه محمد ﷺ ، عن وجود الله تعالى ، وصفاته ، وملائكته ، وكتبه ، وأنبيائه ، واليوم الآخر ؛ وتسلك الطريق الذي هدى اليه لعبادة الله واتباع أحكامه وأوامره .

---

(١) قد ذكرت في هذا المقام خمسة أمور يجب الايمان بها وهي مأخوذة من قوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الآية (البقرة : ٢٨٥) ومن قوله تعالى « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر » (النساء : ١٣٦) . ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر « القدر خيره وشره » من الامور التي يجب الايمان بها أيضاً ، ولكن الحق ان ليس الايمان بالقدر ، إلا جزءاً من أجزاء الايمان بالله ، وعلى هذا قد ذكره القرآن في ضمن بيان التوحيد ، ولذلك اكتفيت ان اذكره في ضمن شرحي لكلمة لا إله إلا الله . وكذلك جاء ذكر الجنة والنار والصراط والميزان في بعض الأحاديث مستقلاً عن الامور الأخرى التي يجب الايمان بها ، والواقع انها أجزاء للايمان بالآخرة .

الفصل الخامس

العبادات

معنى العبادة – الصلاة – الصوم – الزكاة – الحج – حماية الاسلام .

قد بينا في الفصل السابق أن النبي محمداً ﷺ أمرنا أن نؤمن :

١ – بالله تعالى وحده لاشريك له .

٢ – وبملائكته .

٣ – وبكتبه ، وبالقرآن على الأخص .

٤ – وبأنبيائه ، وبخاتمهم محمد ﷺ على الأخص .

٥ – وبالحياة الآخرة .

هذا هو أساس الاسلام .

إنك إذا آمنت بهذه الامور الخمسة ، فقد دخلت في زمرة المسلمين . وأصبحت فرداً منهم ، ولكنك لم تستكمل إسلامك بعد ، فان المرء لايستكمل اسلامه ، إلا اذا أطاع ماجاء به النبي ﷺ من الاحكام والأوامر من عند الله تعالى . . فان ايمانك بشيء يستلزمك أن تطيعه . وهذه الطاعة بعد الايمان هي الاسلام . قد أقررتَ أن الله وحده هو إلهك ، فمعنى ذلك أنه سيدك وأنت عبده ، وأنه مالكك وآمرك وناهيك ،

وأنت المطيع لأمره ونهيه ، والقائم عند حدوده . فاذا عصيته بعد ذلك ، فقد اقترفت جريمة الخروج على سيدك بموجب إقرارك أنت . ثم انك قد أقررت بأن القرآن كتاب الله ، فمعنى ذلك ، أنك سلمت بأن كل مافي هذا الكتاب هو الحق من عند الله ، وذلك مايوجب عليك أن تصدق به وتطيعه في كل أمر من أوامره ونهي من نواهيه . ثم أقررت أن محمداً ﷺ رسول الله ، فمعنى ذلك أنك أقررت بأن كل مايأمر به النبي ﷺ أو ينهى عنه ، إنما هو من عند الله تعالى ، وذلك مايوجب عليك طاعته ﷺ . لذا فلن تستكمل اسلامك إلا اذا جاء عملك وفقاً لايمانك ، والا فعلى قدر مايكون الفرق بين ايمانك وعملك ، يكون ايمانك ناقصاً غير كامل .

وتعال نتبين ذلك الطريق الذي أمر النبي محمد ﷺ ، أن نسلكه لقضاء حياتنا وفقاً لمرضاة الله تعالى . وأول شيء في هذا الباب هو « العبادات المكتوبة » .

معنى العبادة :

العبادة هي العبودية معنىً وحقيقةً . أنت عبدٌ والله معبودك ؛ فكل مايأتي به العبد في طاعة معبوده هو العبادة. فمثلاً اذا كلمت الناس واجتنبت الكذب والغيبة والفحش والبذاءة في كلامك لهم ، لأن الله قد نهاك أن تأتي بهذه الأمور ، وتحريت الصدق والعدل والمعروف والخير في كلامك لهم ، لأن الله يحب هذه الأمور ، فكلامك هذا عبادة لله تعالى ولو كان كله عن شؤونك الدنيوية . وكذلك اذا عاملت الناس ومشيت في الأسواق مشترياً وبائعاً ، وعاشرت أباك وأمك وإخوتك وأهلك ،

وجالست اصدقاءك وذوي قرباك ، مراعياً في كل ذلك أحكام ربك وقوانينه ، وأديت إلى كل ذي حق حقه ، لأن الله قد أمرك بأدائه اليه ، وما بخست أحداً شيئاً من حقه ، لأن الله نهاك عن ذلك ، فقد قضيت حياتك هذه كلها في عبادة الله تعالى . وكذلك إذا أحسنت إلى مسكين ، أو نصرت مظلوماً ، أو أطعمت جائعاً ، أو واسيت مريضاً ، وجعلت نصب عينيك في كل هذا وجه الله تعالى دون طلب منفعة أو عزة أوسمعة ذاتية ، عُدّ كل ذلك من عبادتك لله تعالى . وكذلك إذا تعاطيت التجارة أو الصناعة أو اشتغلت بالخدمة واديت ماعليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاءً لله تعالى ، ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام ، كان كسبك هذا وسعيك في سبيله عبادة لله تعالى ، مع أنك ماقمت بكل ذلك الا لتكسب الرزق لنفسك .

وجملة القول ، إن خوفك لله تعالى في كل شأن من شؤون حياتك ، وفي كل حين من أحيانك ، وجعلك مرضاة الله نصب عينيك ، واتباعك لقانونه ، ورفضك لكل منفعة تنالها أو يمكن أن تنالها بمعصيته ، وصبرك على كل مضرة تصيبك أو يمكن أن تصيبك بطاعته ، ذلك كله من عبادتك لله تعالى ، وحياتك بهذا الطريق من أولها إلى آخرها عبادة ، وليس الأكل والشرب والنوم واليقظة والقعود والقيام والمشي والكلام والسكوت إلا من العبادة في حياة كهذه .

هذه هي العبادة وهذا هو معناها الحقيقي . وما غرض الاسلام إلا أن يجعل الانسان عبداً يعبد الله مثل هذه العبادة في كل حين من أحيانه ، وقد افترض عليه لهذا الغرض مجموعة من العبادات تُهيِّئُهُ

لهذه العبادة الكبيرة ، فكأنه ليست هذه العبادات المفروضة ، إلا بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة . فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه ، يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد . ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الاسلام ، وقيل إنها أركان الدين ، أي دعائمه التي يقوم عليها بناؤه . فكما لايقوم كل بناء إلا من مجموعة من الدعائم ، كذلك لايقوم بناء الحياة الاسلامية إلا على هذه الدعائم . فمن هدمها ، فقد هدم بناء الاسلام نفسه .

الصلاة :

الركن الأول من أركان الاسلام الصلاة . وما الصلاة في حقيقة الأمر إلا أن تعيد بلسانك وأعمالك ، خمس مرات في الليل والنهار ، ذكر ماقد آمنت به . فاذا استيقظت صباحاً ، مثلت بين يدي ربك طاهراً نظيفاً قبل أن تشتغل بشيء آخر ، ثم أقررت بين يديه بعبوديتك له قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، واستعنته واستهديته . وجددت مابينك وبينه من ميثاق الطاعة والعبودية ، وأعدت مرة بعد مرة أمنيتك في نيل رضاه والابتعاد عن غضبه ، وأعدت درس كتابه ، وشهدت بصدق رسوله ، وذكرت يوماً ترجع فيه إلى محكمته لتُسأل فيها عن أعمالك ، ثم تنال عليها الجزاء الذي تستحقه . . . بهذا يبتديء نهارك . ثم اذا اشتغلت ساعات بأعمالك ، ناداك المؤذن أن هلم الى ذكر الله ، وأعدْ درسك مرة أخرى ، لئلا تنساه وتكون من الغافلين ، فنهضت من مكانك ، وبعد أن جددت الايمان ، رجعت الى الدنيا واشتغلت بشؤونها ، ثم ناداك المؤذن مرة ثالثة لصلاة العصر بعد ساعات ، ثم اذا أدبر النهار وأقبل الليل ، بدأتَ ليلك بما كنت بدأت به نهارك ، من ذكر الله تعالى وعبادته ، كيلا تنسى

درسك في الليل . ثم اذا جاء وقت النوم بعد قليل ، صليت صلاة العشاء، وذكرت ربك للمرة الأخيرة ، فانه وقت الهدوء والطمأنينة ، ولك أن تتمتع فيه من الهدوء والسكينة ، بما عسى أن يكون قد فاتك في ضوضاء النهار وغوغاء المعاش .

إن الصلاة هي التي لا تنفكُّ تدعم أساس إسلامك خمس مرات في كل يوم ، وتُعدُّك للعبادة الواسعه الحقيقية التي قد ذكرناها لك آنفاً . وهي التي تذكرك دائماً بالعقائد التي تنحصر فيها طهارة نفسك ، وارتقاء روحك، وصلاح أخلاقك وأعمالك . أفرأيت لماذا تتبع في وضوئك ذلك الطريق الخاص الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولماذا تقرأ في صلاتك بتلك الكلمات التي علمها الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أليس ذلك لأنك ترى طاعة الرسول واجبة على نفسك ؟ ولماذا لا تخطىء عمداً فيما تقرأ من القرآن في صلاتك ؟ أليس ذلك لأنك موقن بأن القرآن كتاب الله ؟ ومن ذا الذي تخشاه اذا قرأت في صلاتك بكلمات دون الكلمات التي علمها الرسول أو لم تقرأ بها أصلاً ، وما هنالك من أحد من البشر يسمعك تقرأ في صلاتك بشيء أو لا تقرأ ؟ أليس ذلك لمجرد علمك ان الله يسمعك ، ولا يخفى عليه أمرك عند ما تقرأ خفية في نفسك ؟ وما الذي يوقظك من النوم ويدعوك الى الصلاة حيث لا يراك احد ؟ أفهو غير اعتقادك أن الله يراك ؟ وما الذي يدعوك الى أن تذر ما تكون فيه من شغلك وتسعى الى الصلاة اذا جاء وقتها ؟ أفليس شعورك بأن الله هو الذي فرض عليك هذه الصلاة ؟ وما الذي يجبرك على الصلاة وقت الصبح شتاءً، ووقت الظهيرة صيفاً ، ووقت اللعب والطرب مساء كل يوم ؟ أفهذا شيء

غير شعورك بالواجب ؟ ثم لماذا تخاف اذا لم تُصَلِّ ، أو اذا أخطأت في صلاتك عمداً ؟ أفلذلك سبب غير أنك تخاف الله ، وتعلم أنك سترجع اليه وتقوم بين يديه يوم القيامة ؟ قل لي بالله بعد كل ذلك هل يمكن ان تكون في الدنيا تربية خير من الصلاة تجعل المرء مسلماً حقاً ؟ وهل يمكن ان تكون للانسان تربية خيرٌ من أن يجدد ذكر الله تعالى وخشيته ، واليقينَ بكونه خبيراً بصيراً ، والاعتقادَ بالحضور في محكمته يوم القيامة ، ويتبعَ الرسول عدة مرات في ليله ونهاره ، ويتدرب على القيام بالواجب بعد كل ساعات من يومه وليله ؟ ان هذا الانسان يرجى منه عند ما يشتغل بأمور معاشه بعد خروجه من المسجد ان يخاف الله ، ويتبع قانونه ، ويتذكر عند كل خطيئة يزينها الشيطان في قلبه ان الله ناظره ولا يخفى عليه أمر من أموره . أما اذا كان المرء لا يخاف الله ولا يكف يده عن معصيته ومخالفة أحكامه حتى بعد هذه التربية العالية ، فما ذلك لسقم في أصل التربية ، وإنما ذلك لما في نفس هذا الانسان وطبيعته من الفساد والخبث والشر .

ثم إن الله قد أكد تأكيداً شديداً ، أن يؤدي المسلمون فريضة الصلاة جماعةً ، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة على الوجه الخاص . فالصلاة جماعةً ، تنشيء الاتحاد والمحبة والاخاء بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متراصة ، فانهم عند ما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ويركعون معاً تأتلف قلوبهم ، وينشأ فيهم الشعور بأنهم أخوة فيما بينهم . ثم ان الصلاة في جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين أنفسهم ، وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات ،

وتنشىء فيهم المؤاساة والتعاطف والتراحم والمساواة والائتلاف ، فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، وأعلاهم وأدناهم ، يقومون جنباً إلى جنب ، فلا شريف فيهم ولا دنيء ، ولا رفيع ولا وضيع .

هذا نزر يسير مما تعود به الصلاة على أنفسكم ، لاعلى ربكم ، من المنافع. والله تعالى لم يفترض عليكم الصلاة إلا لصالحكم أنتم . وما غضبه عند ما لا تؤدونها لأنكم قد أصبتموه بشيء من الضرر ، بل لأنكم ظلمتم أنفسكم. أنظروا أية قوة عظيمة ينعم بها الله عليكم بواسطة الصلاة . ثم أنتم معرضون ؟ فيا للخجل ! تقرون بألسنتكم بألوهية الاله وطاعة الرسول ومسؤولية الآخرة ، ثم لا تؤدون أكبر واجب قد فرضه عليكم ربكم ؟ إن أمركم أحد اثنين : إما أنكم تنكرون أن الصلاة فريضة من الله ، أو تقرون بكونها فريضة من الله ولكنكم تعرضون عن أدائها . فإن كنتم تنكرون أنها فريضة ، فانكم تكذبون بالقرآن ، وتكذبون الرسول ﷺ ، فما دعواكم بالايمان بها إلا دعوى كاذبة . وان كنتم لا تؤدونها مع إقراركم بكونها فريضة من الله ، فكفى به أن يُذهب عن قلوب الناس الثقة بأمانتكم : تخونون فريضة الله عليكم ، فكيف يرجى منكم ألا تخونوا حقوق الناس وأماناتهم ؟!

الصوم :

والركن الثاني من أركان الاسلام الصوم . وما أدراك ما هو الصوم؟ إن الدرس الذي تذكر به الصلاة خمس مرات في الليل والنهار ، يذكّر به الصوم في كل حين من الاحيان مدة شهر كامل من السنة . فاذا جاء رمضان ، انقطعتَ عن الأكل والشرب من الفجر الى المساء . وبينما أنت

تأكل وتشرب ، إذا بالصبح يبلج ، واذا بك تسمع الأذان فتمسك يدك عن طعامك وشرابك دفعة واحدة ، ومهما جاءك بعدئذ من طعام شهي وشراب هنيء ، واشتد بك الجوع والعطش ، فانك لا تقربها حتى غروب الشمس . ولا يقف الأمر عند امتناعك عن الطعام والشراب أمام أنظار الناس ، بل لا تقربها أيضاً في وحدتك ، التي لا يراك فيها أحد . ففي أثناء هذه الساعات – من الفجر الى غروب الشمس – ، لا تتجرّع جرعة من الماء ، ولا تبتلع لقمة من الطعام . ولكن هذا الامتناع عن الطعام والشراب لا يمتد إلا الى حين محدد ؛ فاذا غربت الشمس وسمعت أذان المغرب ، أسرعت الى الافطار ، وأقمت الليل تأكل وتشرب ما تشاء هنيئاً مريئاً . تفكر ! ماهذا الذي تصنع ؟ لا شك أن من ورائه خشية الله تعالى ، واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، والايمان باليوم الآخر والحضور في محكمة الله ، والطاعة الشديدة للقرآن والرسول ، والشعور القوي بالواجب ، والمران على الصبر والتجلد ، والقدرة على التغلب على الشهوات النفسانية . يأتيك شهر رمضان كل عام ، ليعنى بتربيتك ثلاثين يوماً كاملاً على هذه الصفات والأخلاق العالية ، حتى تكون مسلماً كاملاً حقاً ، وتجعلك هذه الصفات والأخلاق قابلاً للقيام بالعبادة الحقيقية ، التي يجب أن يؤديها المسلم في كل لحظة من لحظات حياته .

ثم إن الله تعالى لم يفترض الصيام على المسلمين جميعاً إلا في شهر واحد بعينه ، ليصوموا جميعاً لا متفرقين . وفي ذلك كثير من المنافع ايضاً ، فاذا جاء شهر رمضان ، أظل المجتمع المسلم كلّه جوّ من الطهارة والنظافة والايمان وخشية الله وطاعة أحكامه ودماثة الأخلاق وحسن الأعمال ،

وكسدت سوق المنكرات ، وعم انتشار الخيرات والحسنات ، وبدأ الصالحون من عباد الله يتعاونون فيما بينهم على أعمال البر والاحسان، وبدأ يعتري الأشرار الخجل من اقتراف المنكرات ، ونشأت في الأغنياء عاطفة المساعدة لاخوانهم الفقراء والمساكين ، وبدأوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ، وأصبح المسلمون جميعاً في حالة متماثلة . وكل ذلك يكوّن فيهم الشعور العام بأنهم جميعاً جماعة واحدة. وتلك وسيلة ناجعة لتنشأ فيهم عاطفة التحاب والاخاء والمواساة والتعاون والوحدة .

ولا ترجع هذه المنافع كلها إلا على أنفسنا ، وما لله من فائدة في إجاعتنا ، وهو لم يفترض علينا صيام شهر رمضان إلا لصالحنا ، فالذين لا يؤدون هذه الفريضة بغير ما سبب ، إنما يظلمون أنفسهم. وأكثر منهم وقاحة وأشنع منهم طريقة ، أولئك الذين يأكلون ويشربون في شهر رمضان علناً بلا احتشام ولا خجل ، كأنهم يعلنون أن لسنا من جماعة المسلمين ولا نحفل بأحكام دينهم ، بل نحن من الذين لا يشق عليهم الخروج من جماعة المسلمين ؛ ولا يأخذهم الخجل من الخروج على خالقهم ورازقهم ، ولا يتحرجون عن مخالفة القانون الذي أوجبه عليهم زعيمهم الأكبر (ﷺ) ، فكيف يرجى فيهم شيء من الوفاء والأمانة والأخلاق والشعور بالواجب والمحافظة على القانون ؟ !

الزكاة :

والركن الثالث من أركان الاسلام « الزكاة » . والله تعالى قد فرض على كل فرد من أفراد المسلمين اذا زاد ماله عن النصاب وحال عليه الحوْل (العام) الكامل ، أن يؤدي زكاته الى رجل من الفقراء أو المساكين أو

أبناء السبيل أو المهتدين الى الاسلام أو الغارمين أو في سبيل من سبل الله.
فهكذا جعل الله تعالى في أموال الأغنياء من المؤمنين حقاً معلوماً للفقراء قدره $\frac{1}{2}$ ٢-٢٠٪ على اختلاف أنواع الأموال، ومن تطوع فوق ذلك، فهو خير له وأعظم أجراً.

وهذا الحق أو النصيب المعلوم، لا ينال الله تعالى، وما هو بحاجة إليه. ولكنه يقول لعباده: إنكم إذا تصدقتم بشيء على أخيكم المسكين لأجلي وابتغاء لوجهي، بطيب خاطر وانشراح صدر منكم، فقد تصدقتم به علي، ولكن على ألا تمنوا عليه ولا تؤذوه ولا تحقروه، ولا ترجوا منه جزاءً ولا شكوراً، ولا تقوموا بذلك ليعلم الناس صدقاتكم ويتذاكروها وليشيروا إليكم بالبنان. فان أديتم الى الفقراء والمساكين والمحتاجين، ما قد جعلت لهم من نصيب في أموالكم، مطهرين قلوبكم من مثل هذه الافكار الباطلة والظنون السافلة، أعطيتكم من أموالي العظيمة نصيباً لا ينفد ولا يبلى.

إن الله قد افترض علينا هذه الزكاة، كما افترض علينا الصلاة والصيام، وهي ركن مهم من أركان الاسلام، لانها تحلي المسلمين بأوصاف التضحية والايثار لوجه الله تعالى، وتزيل عن قلوبهم الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال وما اليها من الصفات الدنيئة الاخرى. لا حاجة للاسلام الى البخيل الشحيح، الذي يعبد المال ويتكالب عليه فانه لا ينفعه في قليل ولا كثير، ولا يهتدي الى الاسلام ويتبع طريقه المستقيم ويسلكه سلوكاً مستمراً، إلا من اذا جاءه أمر من أوامر الله ضحى في سبيله بماله الذي اكتسبه بعرق جبينه بدون أدنى غرض ذاتي. والزكاة

تروض المسلم على هذه التضحية ، وتجعله قابلاً لئلا يثاقل إلى أمواله ، ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، إذا بلغ الامر مبلغ الجد ، واقتضى بذل المال ، بل ينفقها بكل انشراح وطيب خاطر منه .

ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون ويتكافلوا فيما بينهم ، حتى لا يبقى فيهم عارٍ ولا جائعٌ ولا مهين ، ويكفل غنيّهم فقيرهم ، ويعاف فقيرهم أن يبسط يده إلى الغني بالاستمداد ، ولا ينفق أحد أمواله في البذخ والترف ، ويعلم أن أمواله حقاً لليتامى والأيامى والفقراء والمساكين من أبناء أمته ، وأن فيها حقاً للذين يقدرون على العمل ولكن لا يجدون اليه سبيلا لما يعوزهم من المال ، وأن فيها حقاً للأطفال الذين فطروا على الذكاء والفطنة ولكن لا يقدرون تحصيل العلم من جراء فقرهم ، وأن فيها حقاً للعجزة الذين لم يعودوا قادرين على العمل . فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق ، ظالم . وأى ظلم أشنع من أن يكون عندك من الثروة الضخمة وأسباب الترف والرفاه ما لا يكاد يأتي تحت الحصر ، وتترفل في قصورك الشامخة ، وتتنعم بركوب سياراتك الفاخرة ، وحولك ألوف من إخوانك الفقراء ، الذين لا يكادون يجدون سبيلا إلى كسرة من الخبز ، وألوف من القادرين على العمل ، يهيمون على وجوههم عاطلين . إن الاسلام يبغض مثل هذا الرجل ويحارب عاطفة أثرته . وما هذه الاثرة إلا من شيمة الكفار ، الذين تعلمهم مدنيتهم أن يدخروا عندهم كل ما تصل اليه أيديهم من الثروة ويرابوا بها . ويجلبوا منها الى انفسهم كل ما في أيدي الناس الآخرين . أما المسلمون ، فيعلمهم دينهم أنه إذا وهب الله لكم من الرزق ما زاد عن

حاجتكم ، فلا تكنزوه ، وأعطوه إخوانكم الذين يفقدونه ، ليسدوا حاجاتهم ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم ، كما تكسبون معيشتكم أنتم .

الحج :

والركن الرابع من أركان الاسلام « الحج » ، وما فرضه الاسلام إلا على الذين يستطيعون السبيل إلى مكة من أغنياء المسلمين ، وما فرضه عليهم إلا مرة في عمرهم .

بنى خليل الله إبراهيم عليه السلام ، بيتاً صغيراً لعبادة الله قبل بضعة آلاف من السنين ، حيث تقع اليوم مكة المكرمة ، فتقبل الله تعالى سعيه ، وشكر حبه واخلاصه ، حتى نسب هذا البيت إلى نفسه ، وقال من أراد أن يعبدني فعليه أن يعبدني مولياً وجهه الى هذا البيت ، ومن استطاع السبيل إلى هذا البيت ، فعليه أن يزوره مرة في عمره على الاقل ، ليطوف به بمثل الحب الذي كان يطوفه به عبدي وخليلي ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وكذلك أمر الله تعالى أن اذا نويتم الحج ، وخرجتم من بيوتكم مريدين هذا البيت الحرام ، فطهروا قلوبكم ، واكبحوا شهواتكم النفسية ، واجتنبوا الفسوق والجدال وسفك الدماء والفحش من الكلام ، وائتوه بما يجب عليكم ان تكونوا عليه عندما تمثلون بين يدي ربكم من الأدب والاحترام والعجز والخشوع ، واعلموا أنكم متوجهون الى ذلك الملك المقتدر الذي له ملك السماوات والارض وما بينهما ، والذي يفتقر اليه كل من سواه . واعلموا أنكم إذا مثلتم بين ايدينا بمثل هـذا العجز والضراعة والخشوع والاخلاص ، وأديتم ما عليكم من عبادتنا بإنابة القلب

وصفاء النية ، فإنا سنعطيكم من عندنا أجراً عظيماً .

وإذا نظرت في الحج بنظرة اخرى ، فانه اهم عبادة لله تعالى وأعظمها شأناً ، فلماذا يفارق الانسان عمله وتجارته وأبناءه وأصدقاءه ، ويعاني وعثاء السفر الطويل ومشقاته ، ان كان قلبه خالياً من حب الله تعالى ؟ إن نفس قصد الانسان حج البيت ، دليل على إخلاصه وحبه لله تعالى . ثم ان الانسان عندما يخرج من بيته ويبدأ الرحلة الى بيت الله الحرام ، لا يكون شأنه فيها شأنه في عامة الرحلات ، فان جل همه يكون في هذه الرحلة منصرفاً الى الله تعالى ، وتزداد في قلبه عواطف الحب والاشتياق الى بيته الحرام . وعلى قدر ما ينطوي عليه بعدالسفر ، ويشعر بدنوّ الكعبة ، تزداد فيه عاطفة الحب ، وتتضاعف جاذبيةالشوق ، ويتنفر قلبه من الذنوب والمعاصي ، ويندم على ذنوبه السالفة ، ويدعو ربه ، ويتضرع اليه أن يوفقه لطاعته في الايام الباقية من حياته ، ويبدأ يشعر بلذة غير عادية في ذكر الله تعالى وعبادته ، ويسجد سجدات طويلة لا يطيب له أن يرفع منها رأسه . وكذلك عندما يتلو القرآن ، فشتان بين ما يحسه من اللذة الآن وما كان يحسه منها من قبل . وعندما يصوم ، يجد حلاوةً ما كان يجدها من قبل . ثم عندما يدخل أرض الحجاز ويطأها بقدمه ، يتمثل في عينيه تاريخ الاسلام في مراحله الاولى ، ويشاهد في كل بقعة من بقاع الارض الطاهرة ، آثار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأحبهم وأحبوه ، وضحوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وتشهد له كل ذرة رملية في هذه الارض بعظمة الاسلام ، وتنطق كل حصاة من حصاها بأن هذه هي الأرض المقدسة التي بدأ منها الاسلام وانبثق منها نوره وعلت منها كلمته . فهكذا يمتلىء قلب المسلم ولعاً بالله تعالى ، وحباً

لدينه . وعندما يرجع الى وطنـــه ، يجد في قلبه أثراً من آثار الاسلام لا يمّحى إلى آخر أيام حياته .

والحج فيه كثير من المنافع الدنيوية ، إلى هذه المنافع الدينية . فمنها ان مكة المكرمة قد جعلت مركزاً للمسلمين ، تهوي اليه نفوسهم من جميع نواحي الارض ، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم ، فيشعرون انهم إخوة فيما بينهم وأنهم لا يؤلفون بمجموعهم الا أمة واحدة ؛ فكأن الحج هو عبادة لله تعالى في جانب ، ومؤتمر عالمي سنوي يفد اليه المسلمون من جميع نواحي الارض وأقطارها بالجانب الآخر فهو أكبر وسيلة وأنجع طريقة ، لتربية الاخوة الاسلامية العالمية ، على الاتحاد والمحبة والتعاون .

حماية الاسلام :

وآخر فرائض الله على عباده هي حماية الاسلام . وهذه الحماية ، وإن لم تكن من اركان الاسلام ؛ ولكنها فريضة مهمة من فرائض الاسلام ، وقد أُبدىء وأعيد في ذكرها في الكتاب والسنة في غير موضع . فما هي حماية الاسلام ؟ ولماذا افترضها الله على المسلمين ؟ يمكن ان تعرف ذلك بمثل أضربه لك لهذا الغرض . هب أن لديك رجلاً يدعي انه صديقك ومحبك ، ولكن يشهد عمله عند كل بلاء ينزل بك انه لا يحبك ، ولا يبالي بما أنت فيه من الشدة ، ولا يهمه نفعك او ضررك ، ولا يتحرج ان يأتي لمنفعته الذاتية بكل عمل يجلب اليك الضرر والشدة ، ويقعد عن كل عمل فيه منفعتك ، لأنه لا يجد فيه سبيلا الى منفعته الذاتية ، ولا يمد اليك يد المساعدة عند المصيبة ، بل يشارك ويشجع الذين يذمونك ويطعنون فيك ، او يسكت على الأقل عن ردعهم عن ذمك ، ويساعد أعداءك عندما يكيدون لك ، او لا يحاول إنقاذك من الوقوع

في مكايدهم على الاقل – فهل لك ان تظن ان هذا الرجل هو صديقك ومحبك ، وتصدقه في دعواه ؟ كلا ! فانه يدعي بصداقته لك بلسانه ، ولا يحبك من قلبه في حقيقة الأمر . ان الصداقة معناها ان يحب الانسان صديقه من قلبه ، ويخلص له ، ويواسيه ويواليه ، ويشاطره كل ما يحل به من الفرح او الترح ، ويناصره على اعدائه ، ولا يرضى ان يسمع احداً يذكره بالسوء . وإذا لم يكن في المرء كل هذا ، فهو منافق كاذب في دعواه .

فقس على هذا المثال مايجب عليك اذا ادعيت أنك مسلم . إن هـذه الدعوى معناها أن تكون فيك الحمية الاسلامية ، والغيرة على الايمان . وحب الدين ، والنصح الصادق لاخوانك المسلمين ، ويكون نفع الاسلام وخير المسلمين نصبَ عينيك في كل ماتأتي به من عمل في هذه الدنيا ، ولا يصدر عنك عمل مضر للاسلام مخالف لأحكامه ومقاصده ، تحقيقاً لمصلحة من مصالحك أو دفعاً لآفة من آفاتك الذاتية . وكذلك يجب عليك أن تشارك بنفسك ومالك في كل عمل فيه خير للاسلام والمسلمين ، وتبتعد عن كل عمل يضر الاسلام والمسلمين ، ولا تعتبر عزتـــك الا في عزة الاسلام والمسلمين ، ولا تصبر على مذلة الاسلام والمسلمين كما لا تصبر على مذلة نفسك ، ولا تعاون أعداء الاسلام والمسلمين كما لاتعاون أعداء نفسك ، وتكون مستعداً لكل نوع من التضحية بنفسك ومالك دفاعاً عن الاسلام وذوداً عن كيان المسلمين ، كما تكون مستعداً لكل نوع من التضحية دفاعاً عن نفسك . ينبغي أن يكون كل من يقول اني مسلم متصفاً بهذه الصفات ، والا عُد من المنافقين ، وشهد عليه عمله بأنه كاذب في دعواه اللسانية .

ومن شعب « حماية الاسلام » هذه « الجهاد في سبيل الله » المعروف في الاسلام ، فان كلمة « الجهاد » معناها لغةً بذل الجهود واستنفاد القوى في أي أمر من الامور ، وهكذا فكل من يسعى لاعلاء كلمة الاسلام بما عنده من المال والنفس والقلم واللسان ، فانه يجاهد في سبيل الله من غير شك بمعنى الجهاد العام ، ولكن تطلق هذه الكلمة بمعناها الخاص على الحرب التي يقوم بها المسلمون في وجوه أعداء الاسلام ، لا لسبب غير ابتغاء وجه ربهم ، متجردين عن كل غرض من أغراضهم الدنيوية . فهذا الجهاد فرض كفاية على المسلمين في الشريعة الاسلامية ؛ أي أنه وان كانت ترجع التبعة فيه على المسلمين جميعاً ، ولكن هذه التبعة تسقط عنهم ، إذا قامت به جماعة منهم ، وأدته عن سائرهم . غير أنه اذا هجم الأعداء على قطر من الأقطار الاسلامية ، أصبح هذا الجهاد فرض عين على أهل ذلك القطر كالصلاة والصوم . واذا كانوا غير قادرين على الدفاع عن انفسهم ، فواجب على كل فرد من مسلمي الاقطار التي تجاور أرضهم أن ينصرهم بماله ونفسه . واذا لم تنكسر حملة الأعداء حتى ولا بعد نصرهم ، عاد نصرهم فرض عين على مسلمي الدنيا جميعاً كالصلاة والصوم ، أي أنه اذا تقاعس عن نصرهم أحد منهم في أي قطر من الاقطار ، كان آثما . وفي مثل هذه الأحوال ، يصبح « الجهاد في سبيل الله » أكثر أهمية وأعظم خطورة من الصلاة والصوم ، فان الايمان يُختبر في الجهاد ، فالذي لا يناصر الاسلام ، ولا يجاهد مع المسلمين ، حتى في حين البلاء والشدة ، فانه مشكوك في إيمانه مرتاب في إسلامه ، وأي فائدة تحصل له من صلاته وصومه إذ ذاك ؟ أما المسلم الذي يناوىء الاسلام ويمالىء على المسلمين أعداءهم ، فهو الشقي الذي لا شك في نفاقه ، قد حبطت صلاته وصومه وزكاته وحجه .

الفصل السادس

الدين والشريعة

الفرق بين الدين والشريعة - وسائل معرفة أحكام الشريعة - الفقه - التصوف .

إن كل ما بيناله حتى الآن في الفصول السابقة ، كان عن الدين . وها نحن نريد ان نبين لك الآن شيئاً عن شريعة محمد ﷺ . ولكن ينبغي لك قبل هذا ان تعرف ما هي الشريعة ، وما هو الفرق بين الدين والشريعة .

الفرق بين الدين والشريعة :

بينا لك ان جميع الانبياء الذين أرسلهم الله تعالى ، ماعلموا الناس إلا الدين الاسلامي ، وهو ان تؤمن بذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر على الوجه الذي هدى اليه هؤلاء الانبيـــاء ، وأن تؤمن بكتب الله وتصدق بها ، ولا تتبع إلا ذلك الطريق المستقيم الذي قد أوضحته هذه الكتب ، وأن تتبع رسل الله الصادقين ولا تتبع غيرهم ، وأن توحد الله ولا تشرك بعبادته احداً .

ويأتي بعد هذا الدين شيء آخر هو « الشريعة »، أي طرق العبادة،

ومبادىء المعيشة والاجتماع، وقوانين مابين العباد من المعاملات والعلائق، والحدود بين الحلال والحرام. فالله تعالى أرسل في بدء الأمر بشرائع مختلفة الى أنبيائه، مراعياً في ذلك احوال مختلف الامم وأزمانها، ليربوا كلاً من هذه الامم على حدة، على الاخلاق والمدنية والثقافة، ويهيؤها جمعاء لاتباع «قانون شامل» من ربهم. فلما تم كل ذلك على أيدي مختلف الأنبيـــاء السابقين، جاء في آخرهم سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ، بذلك القانون الشامل الذي صيغت مواده للدنيا كلها الى يوم القيامة. فليس **الدين** الآن، إلا نفس الدين الذي علمه وهدى اليه الانبياء السابقون، ولكن نسخت شرائعهم، وأقيمت مكانها **شريعة** كاملة لاتختلف فيها طرق العبادة، ومبادىء المعيشة، وقوانين مابين العباد من المعاملات والحدود بين الحلال والحرام للناس جميعاً الى يوم القيامة.

وسائل معرفة أحكام الشريعة :

وعندنا وسيلتان لمعرفة مبادىء الشريعة المحمدية وأحكامها : القرآن والسنة. أما القرآن فانك تعرف أنه كلام الله، وكله لفظة لفظة من عنده تعالى : أما السنة، فالمراد بهـــا الروايات التي جاءت عن رسول الله ﷺ. فلقد كانت حياة الرسول ﷺ، من أولهـــا الى آخرهـــا شرحاً للقرآن، وما زال ﷺ منذ بعث الى الناس وجاءه الوحي، مشتغلا بتعليم الناس وإرشادهم الى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم، مدة ٢٣ سنة متوالية. ففي هذه المدة غير اليسيرة، ما زال أصحابه من الرجال والنساء، وعشيرته الاقربون، وأزواجـــه المطهرات، يستمعون الى كلامه بغاية من الاهتمام، ويتبعون أعماله،

ويستفتونه في كل مايعرض لهم في حياتهم من مختلف الشؤون والمعاملات فتارة يأمرهم بشيء ، واخرى ينهاهم عن شيء آخر ، فيعي الشاهدون أوامره ونواهيه وأحكامه ، ويبلغونها الغائبين ؛ وكذلك اذا جاء النبي ﷺ بعمل خاص ، وعاه عنه الشاهدون وبلغوه الغائبين ؛ وكذلك كان اذا أتى رجل في صحبته ﷺ بعمل ، إما أن يسكت عليه أو ينهاه عنه ، فكان الناس يحفظون عنه مثل هذه الامور أيضاً . والذي جاؤوا من بعدهم واتبعوهم باحسان ، حفظوا عنهم كل ماسمعوهم يحدثونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دونوا هذه الأحاديث كلها في الكتب ، مع ذكر اسماء الذين رووها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، وهكذا اصبحت في أيدي الناس مجموعة كبيرة من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشهر هذه الكتب وأكثرها اعتماداً الكتب التي دونها الامام البخاري ، والامام مسلم ، والامام مالك ، والامام الترمذي ، والامام أبو داود ، والامام ابن ماجه ، والامام النسائي .

الفقه :

وقد استعرض جماعة من كبار أئمة المسلمين أحكام القرآن والسنة ، ورتبوا بناء عليها قوانين الاسلام المفصلة المنتشرة في الكتب ، يريدون بذلك تهيئتها بسهولة لعامة المسلمين . وهذه القوانين المستنبطة من أحكام القرآن والسنة ، هي التي تعرف « بالفقه » . لايمكن لكل فرد من أفراد الامة ان يستنبط الاحكام من القرآن مالم يكن عنده من العلم بالسنة مايتمكن به من معرفة أحكام الشريعة بنفسه ، فلا يمكن لمسلمي

الدنيا جميعا أن يتبرأوا مما في أعناقهم من الجميل لهؤلاء الأئمة الكبار ، الذين عانوا المشاق ورتبوا لهم كتب الفقه ، بعد تحقيق مستمر وجهود مضنية متوالية . ولا شك انه من نتائج جهود هؤلاء الأئمة الكرام ، مايجد عامة المسلمين اليوم من السهولة في اتباع الشريعة الاسلامية ومعرفة أحكامها.

وقد كان رتب كتب الفقه رجال كثيرون على أساليبهم في بدء الأمر ، ولكن بقي في آخر الأمر أربعة مذاهب فقهية ، وهي التي يتبعها اليوم معظم مسلمي الأرض .

١ – **الفقه الحنفي** : رتبه أبو حنيفة رضي الله عنه بمساعدة ومشاورة من بعض أصحابه كأبي يوسف ومحمد وزُفرَ وغيرهم من العلماء الكبار الآخرين .

٢ – **والفقه المالكي** : رتبه مالك بن أنس رضي الله عنه .

٣ – **والفقه الشافعي** : رتبه محمد ابن إدريس الشافعي رضي الله عنه .

٤ – **والفقه الحنبلي** : رتبه حمد بن حنبل رضي الله عنه .

وقد تم ترتيب هذه المذاهب الفقهية الأربعة ، في القرنين الأولين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وان الاختلافات التي توجد فيما بينها اختلافات فطرية ، فان كل أمر اذا تعرض له عدة رجال وحاولوا أن يعرفوا حقيقته ، فلا بد ان تأتي آراؤهم فيه مختلفة فيما بينهم ولو على قدر يسير . ولكن لما كان الجميع أئمة برره صادقين ورعين ، يتبعون الحق ولا يرضون عنه بديلاً ، فالمسلمون جميعا يعتقدون صدق مذاهبهم و كونها على الحق .

ولكن من الظاهر أنه لايمكن ان يتبع الانسان في أمر من أموره إلا مذهبا واحداً من هذه المذاهب الأربعة ، فالذي عليه أكثر علماء

المسلمين، ان المسلمين ينبغي لهم أن يتبعوا أحد هذه المذاهب . . غير أن هناك جماعة من العلماء ، يقولون بأن لا حاجة الى اتباع مذهب فقهي بعينه. بل يجب على من أوتي العلم أن يستنبط الأحكام من القرآن والسنة مباشرة ، والذين لا علم عندهم ولا يقدرون ان يستنبطوا الأحكام من القرآن والسنة بأنفسهم ، فعليهم ان يتبعوا كل من يرونه على الحق ويطمئنون الى علمه وصدقه وتقواه من علماء المسلمين . فيُعرف هؤلاء الجماعة بأهل الحديث ، وهم على الحق مثل الطوائف الأربعة المذكورة .

التصوف :

إن علاقة الفقه انما هي بظاهر عمل الانسان فقط ، ولا ينظر إلا هل قمت بما أُمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فان قمتَ ، فلا تهمه حال قلبك وكيفيته . أما الشيء الذي يتعلق بالقلب ويبحث عن كيفيته ، فهو التصوف . إن الفقه لا ينظر من حيث صلاتك مثلاً ، إلا هل قد أتممت وضوءك على الوجه الصحيح أم لا ؟ وهل صليت موليا وجهك شطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل أديت أركان الصلاة كلها أم لا ؟ وهل قرأت في صلاتك بكل ما يجب أن تقرأ به فيها أم لا ؟ فان قمت بكل ذلك ، فقد صحت صلاتك بحكم الفقه . إلا أن الذي يهم التصوف هو ما يكون عليه قلبك حين ادائك هذه الصلاة من الحالة : هل أنبت فيها الى ربك أم لا ؟ وهل تجرد قلبك فيها عن هموم الدنيا وشؤونها أم لا ؟ وهل أنشأت فيك هذه الصلاة خشية الله واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، وعاطفة ابتغاء وجهه الأعلى وحده أم لا ؟ والى أي حد نزهت هذه الصلاة روحك ؟ والى أي حد أصلحت أخلاقك ؟ والى أي حد جعلتك مؤمناً صادقاً عاملاً بمقتضيات إيمانك ؟ فعلى قدر ما تحصل

لك هذه الأمور – وهي من غايات الصلاة وأغراضها الحقيقية – في صلاتك ، تكون صلاتك كاملة في نظر التصوف ؛ وعلى قدر ما ينقصها الكمال من هذه الوجهة ، تكون ناقصة في نظر التصوف . فهكذا لا يهم الفقه في سائر الأحكام الشرعية إلا هل أديت الأعمال على الوجه الذي أمرت به لأدائها أم لا ؟ أما التصوف فيبحث عما كان فيك من الاخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامك بهذه الأعمال .

ويمكنك أن تدرك هذا الفرق بين الفقه والتصوف بمثل أضربه لك . إنك إذا أتاك رجل ، نظرت فيه من وجهتين : احداهما هل هو صحيح البدن كامل الأعضاء أم في بدنه شيء من العرج أو العمى ؟ وهل هو جميل الوجه أو دميمه ؟ وهل هو لابس زياً فاخراً أو ثياباً بالية ؟ والوجهة الأخرى أنك تريد أن تعرف أخلاقه وعاداته وخصاله ومبلغه من العلم والعقل والصلاح . فالوجهة الأولى وجهة الفقه ، والوجهة الثانية وجهة التصوف . وكذلك إذا أردت أن تتخذ أحداً صديقاً لك ، فانك تتأمل في شخصه من كلا الوجهتين ، وتحب أن يكون جميل المنظر وجميل الباطن معاً . كذلك لا تجمل في عين الاسلام إلا الحياة التي فيها اتباع كامل صحيح لأحكام الشريعة من الوجهتين الظاهرة والباطنة . ومثل الذي طاعته صحيحة في الظاهر ، ولكن يعوزه روح الطاعة الحقيقية في الباطن ، كمثل جسد جميل الوجه قد فارقه روحه . ومثل الذي في عمله الكماليات الباطنة كلها وليست طاعته صحيحة على حسب الوجه المراد في الظاهر ، كمثل رجل صالح دميم الوجه مطموس العينين أعرج القدمين .

وسهل عليك بهذا المثال أن تعرف العلاقة بين الفقه والتصوف .

ولكن مما يدمي القلب ويبكي العين ، أنه لما أصيبت العلوم والأخلاق بالزوال والانحطاط في الأزمان الأخيرة ، وحدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات ، قذرت عين التصوف الصافية أيضاً ، وتعلم المسلمون كثيراً من الفلسفات غير الاسلامية من الأمم الضالة ، وأدخلوها الاسلام باسم التصوف ، وأطلقوا اسم التصوف على كثير من العقائد والطرق الأجنبية التي لا أصل لها في الكتاب والسنة . ثم تدرج هؤلاء الناس في تحرير أنفسهم عن قيود الاسلام ، وقالوا أن لا علاقة للتصوف بالشريعة ، فان هذا في واد وذاك في واد ، وما على الصوفي أن يقيد نفسه بالقانون وأحكام الشريعة . إنك كثيراً ما تسمع بمثل هذه الأوهام والترهات من كثير من الصوفية الجاهلين ، ولكن ليست كلها في حقيقة الأمر ، إلا من قبيل الخرافات والأكاذيب . لا يحل لصوفي أن يتحلل من قيود الصلاة والصوم والحج والزكاة ؛ ولا يحق لصوفي أن يخالف حكماً من الأحكام التي بينها الله ورسوله الكريم ﷺ ، عن الاقتصاد والاجتماع والمعاشرة والأخلاق والمعاملات والحقوق والواجبات وحدود الحلال والحرام ؛ ولا يستحق من لا يتبع الرسول ﷺ اتباعاً صحيحاً ولا يتقيد بما أرشد إليه من صراط الحق ، أن يسمي نفسه صوفياً إسلامياً ، فان مثل هذا التصوف ليس من الاسلام في شيء أبداً . إنما التصوف عبارة ، في حقيقة الأمر ، عن حب الله ورسوله الصادق ، بل الولوع بهما ، والتفاني في سبيلهما . والذي يقتضيه هذا الولوع والتفاني ، ألا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله ﷺ . فليس التصوف الاسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة ، وإنما هو القيام بأحكامها بغاية من الاخلاص وصفاء النية وطهارة القلب .

الفصل السابع

أحكام الشريعة

مبادىء الشريعة – الحقوق وأقسامها الأربعة – حقوق الله – حقوق النفس
حقوق العباد – حقوق سائر المخلوقات – الشريعة العالمية الدائمة.

في هذا الفصل الأخير نبين لك من مبادى الشريعة وأحكامها المهمة ما ستعلم منه كيف تجعل الشريعة الاسلامية حياة الانسان مقيدة بضابطة محكمة وما في هذه الضابطة من الحكم والمصالح .

مبادىء الشريعة :

إنك إذا تأملت في نفسك ، علمت أنك قد جئت هذه الدنيا مودعاً في نفسك كثيراً من القوى ، التي تقتضي كل واحدة منها أن تستخدمها ولا تهمل شأنها . ففيك العقل والعزم والرغبة ، والنظر والسمع والذوق ، وقوة اليدين والرجلين ، وعاطفة النفرة والغضب والشوق والحب والخوف والطمع ، وليس شيء من هذه الأشياء بعديم المنفعة ، وما أوتيته إلا لأنك في حاجة إليه . والذي يتوقف عليه نجاحك في هذه الدنيا ، أن تحقق ما تتطلبه اليك فطرتك وطبيعة نفسك . ولكن لا

يمكن ذلك الا بأن تستخدم القوى التي اوتيتها في نفسك .

ثم لا يخفى عليك أنك قد أوتيت وسائل ، يمكنك أن تستخدم بها هذه القوى المودعة في نفسك . فأول وسيلة من هـذه الوسائل هي جسدك ، الذي تجد فيه الأدوات الضرورية كلهـا ، ثم حولك هذه الدنيا ، التي انتشرت فيها وسائل مختلفة لا تقع تحت الاحصاء . ففيها الناس من جنسك لمساعدتك ، والبهائم لخدمتك ، والنباتات والجمادات والأرض والمـاء والهواء والحر والنور ، وما إلى مثل هذه الأشياء الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله . والله تعالى ما خلق هذه الأشياء في هذا الكون إلا لتستخدمها وتستمد منها في قضاء حياتك .

ثم انظر في الواقع من وجهة أخرى .

إنك ما أوتيت هذه القوى إلا لنفعك لا لمضرتك. فالصورة الصحيحة لاستخدامها صورة فيها النفع لا المضرة ، وان كانت فيها المضرة ، فالى حد لا بد منه . يقول العقل ان كل صورة دون هـذه الصورة غـير صحيحة . فمثلاً إذا عملت عملاً ضرك في نفسك ، كنت على الخطأ، وكذلك إذا استخـدمت قوة من قواك على وجـه يضر غيرك ، كنت أيضاً من المخطئين . وكذلك إذا استعملت قوة من قواك على وجه يهمل ما أودع في نفسك من الوسائل ، كنت أيضاً من الخاطئين . يشهد لك عقلك أن المضرة ، ولو من أي نوع كانت ، عليك أن تبتعد عنهـا ، ولا يمكن أن تصبر عليها إلا إذا كان الابتعاد عنها غير ممكن أو إذا كانت بإزائها فائدة كبيرة .

ثم إذا تقدمت ، علمت أن الدنيا يوجد فيها نوعان من البشر ، نوع

من الذين يستخدمون بعض قواهم عمداً ، في الوجوه التي تفسد عليهم سائر قواهم ، أو تجلب المضرة على غيرهم من البشر ، أو هم يهملون أدواتهم وقواهم التي أودعوها في أنفسهم . والنوع الثاني ، من الذين يفعلون كل ذلك ولكن من غير قصد من أنفسهم . فرجال النوع الأول من الأشرار ، وهم في حاجة الى قانون شديد يأخذ على أيديهم . ورجال النوع الثاني من الجهال ، الذين لا يعلمون شيئاً ، وهم محتاجون الى علم يشعرهم بالصورة الصحيحة لاستخدامهم قواهم .

ولقد جاءت الشريعة الاسلامية تسد هذه الحاجة ، وتحقق هذا الغرض ، فلا تريد منك أن تهمل قوة من قواك ، او تمحو رغبة من رغباتك ، أو تنفي عاطفة من عواطف نفسك ، فهي لا تقول لك أن اترك الدنيا ، واقض أيام حياتك في الجبال والغابات والكهوف والمغارات ، واشدد على نفسك واكسر سورتها ، وذللها بالمصائب والشدائد ، وحرم عليها زينة الحياة الدنيا ولذاتها ونعمها . كلا ! فانها شريعة عني بوضعها الله الذي خلق للانسان هذه الدنيا ، فكيف يمكن أن يرضى لكونه بالامحاء والخراب والفناء ؟ ان الله تعالى ما أودع الانسان في نفسه قوة لا تنفعه ولا يحتاج اليها . وكذلك ما خلق شيئاً في السماوات ولا في الارض عبثاً ، بل يريد أن يبقى معمل الكون هذا ، يسير سيراً مستمراً على نظام مدبر ، وينتفع فيه الانسان من كل شيء ، ويستخدم مختلف أسبابه ووسائله ، ولكن على وجه لا يضر نفسه ولا أحداً غيره . ولهذا الغرض نفسه وضع الله تعالى ما وضع من قواعد الشريعة وضوابطها . وهكذا حرمت هذه الشريعة على الانسان كل شيء يجلب اليه الضرر ، وأحلت له كل شيء

يعود عليه بالنفع ولا يضر غيره . إن المبدأ الذي يقوم عليه بناء الشريعة الاسلامية ، هو أن الانسان من حقه أن يعمل لتحقيق رغبات نفسه وحاجاتها ، ويسعى في سبيل منفعته الذاتية كيف ما يشاء . ولكن من الواجب عليه في الوقت نفسه ، ألاّ يتمتع بهذا الحق ، إلا من حيث لا يضيع حقوق غيره من البشر بجهله أو شره ، بل ينبغي أن يكون مساعداً لهم ومتعاوناً معهم على قدر وسعه . أما الامور التي فيها ناحية للنفع وناحية للضرر ، فتقول فيها الشريعة إن الانسان عليه أن يتحمل الضرر الخفيف للنفع الكبير ، ويترك النفع التافه احترازاً من الضرر الشديد .

لايمكن أن يعرف كل انسان ، في كل زمان ، عن كل شيء او عمل ، مافيه من النفع أو الضرر . ولذا وضع الله تعالى — وهو العليم الخبير الذي لايخفى عليه سر من أسرار الكون — نظاماً صحيحاً كاملاً لحياة الانسان . وما كان الناس ليفطنوا إلى كثير من مصالح هذا النظام في القرون القديمة ، ولكن رقي العلم في هذا الزمان قد كشف عنها الغطاء ، بل لايزال الناس يجهلون كثيراً من مصالحه في هذا الزمان أيضاً ، ولكنها لاتزال تتكشف وتتجلى لأعين الناس ، على قدر ما يكتب للعلم من الرقي والنمو .

والذين عوّلوا على علمهم الناقص وعقولهم الضعيفة ، ما وجدوا لأنفسهم بداً في آخر الامر ، أن يختاروا قاعدة من قواعد هذه الشريعة نفسها ، بعد ما هاموا على وجوههم ، وخبطوا في ظلمات الجهل والخطأ والضلال خبط عشواء إلى قرون . أما الذين اعتمدوا على رسول الله ، واهتدوا

بهديه ، واستنـاروا بنوره ، فقد أمنوا عواقب الجهل ومضراته ، فهم يواظبون دائماً على قانون وضع على قواعد العلم الصحيح الخالص ، سواء أعرفوا ما فيه من المصالح ، وما في اتباعه من المنافع ، أم لم يعرفوا .

الحقوق وأقسامها الأربعة :

وبحكم الشريعة الاسلامية ، يجب على كل فرد من أفراد البشر اربعة أقسام من الحقوق :

١ — حقوق الله .

٢ — حقوق النفس .

٣ — حقوق العباد .

٤ — حقوق ما تحت يده في هذه الدنيـــا من شيء يستخدمه وينتفع منه .

من الواجب على كل مسلم صادق ، أن يعرف هذه الأقسام الأربعة من الحقوق ، ويؤديها بكل إخلاص وأمانة وصدق . والشريعة الاسلامية قد بينت كلاً من هذه الاقسام على حدة ، ووضعت وأوضحت لأدائهـا من الطرق والمناهج ، ما يساعد البشر على أدائها معاً في آن واحد ، بحيث لا يضيع منها حق ما ضمن حدود الامكان .

حقوق الله :

إن **أول حق** من حقوق الله تعالى ان يُؤمن به ، ولا يُشرك به شيء ، ولا يُتخذ غيره إلهاً ولا رباً . ويؤدّى هذا الحق بالايمـان بكلمة « لا إله إلا الله » كما بينا لك من قبل .

والحق الثاني من حقوق الله ، ان يُذعن إذعاناً تاماً لما جاء من عنده

من الحق والهداية . ويؤدّى هذا الحق ، بالايمان بـ « محمد رسول الله » كما أوضحنا لك من قبل .

والحق الثالث من حقوق الله ، أن « يطاع » ؛ ويؤدّى هذا الحق ، باتباع القانون الذي بينه كتاب الله المجيد وأوضحته وشرحته سنة رسوله ﷺ ، كما أشرنا اليه من قبل .

والحق الرابع من حقوق الله ، ان « يُعبد » ؛ ولأداء هـذا الحق ، فرض على الانسان ما فرض من الفرائض والواجبات التي مر ذكرها في الفصل الخامس . ولان هـذا الحق أولى من غيره ، يجب ان يضحّي لأدائه بسائر الحقوق الى حـد ما . فمثلا ان الانسان عندما يقوم لأداء فريضة الصلاة أو الصوم ، يضحي بكثير مما عليه من حقوق نفسه : يستيقظ مبكراً ، ويتوضأ بالماء البارد ، ويترك كثيراً من أعماله المهمة وأشغاله الشاغلة غير مرة واحدة في الليل والنهار ، لأداء فريضة الصلاة ، ويدع طعامه وشرابه ، ويكبح نفسه شهراً كاملا ، لأداء فريضة الصوم . ويؤثر حب الله على حب المال لأداء فريضة الزكاة ؛ ويقاسي وعثاء السفر وشدائده وينفق كثيراً من أمواله ، في الحج ؛ ويضحي بنفسه وماله في الجهاد . وكذلك يضحي بما عليه من حقوق الناس لأداء حقوق الله الى حد قليل أو كثير . ففي الصلاة مثلا ، يكف العبد عن خدمة سيده . ليعبد سيده الأكبر ، ويؤدي ما عليه من حقه ؛ وفي الحج ، يفتر عن شؤون معاشه وتجارته ، ويغادر أهله وأبناءه ، ويسافر الى بيت الله الحرام ، مما يمس بحقوق كثير من الناس من غير شك ؛ وفي الجهاد ، لا يقتل الانسان ولا يقتل إلا لوجه الله تعالى وحده . وكذلك يضحي الانسان لأداء حقوق

الله ، بكثير من الأشياء التي يتصرف فيها وهي تحت يده ، كالتضحية بالحيوانات وإنفاق المال .

على أن الله تعالى ، وضع لحقوقه حدوداً ، حتى لا يضحي بحقوق غيره لأداء حق من حقوقه إلا إلى حد لابد منه . خذ لذلك الصلاة مثلاً ، فالله تعالى ما أراد بك العسر في أداء الصلاة بل أراد اليسر ، فانك إذا لم تجد الماء ، او كنت مريضاً ، فلك أن تتيمم صعيداً طيباً ؛ وإن كنت على سفر ، فلك ان تقصر من صلاتك ؛ وان كنت مريضاً ، فلك أن تصلي قاعداً او مضجعاً ؛ وإن الذي تقرا به في صلاتك من القرآن ليس بكثير ، حتى إنك لا تصرف في القراءة به إلا دقائق معدودة ؛ تقول الشريعة إنك اذا كنت في حال من الدعة والطمأنينة ، فلك ان تقرأ في صلاتك بما شئت من القرآن ، كسورة البقرة او آل عمران او النساء ، أو غير هذه من السور الطوال ، ولكن لا يجوز لك ان تطيل صلاتك في أوقات شغلك . ثم إن الله تعالى ، وان كان يفرح كثيراً إذا تطوع الانسان وتقرب اليه بالنوافل بعد الصلوات المكتوبة ، ولكنه لا يريد أبداً أن تحرم على نفسك نوم الليل وراحة النهار ، أو تقضي أوقات الكسب في النوافل ، أو تنقطع الى الصلاة عن شؤون الدنيا كلها ، ولا تكترث لما عليك من حقوق عباد الله .

وكذلك قد يسر الله عليك كثيراً في الصوم ، فانه ما افترض الصوم على عباده إلا مدة شهر من السنة ، ويجوز تأخيره الى أيام أُخر ، اذا كان الانسان مريضاً أو كان على سفر . ولا يجوز ان تضاف دقيقة واحدة إلى ما حدد للصوم من الوقت ، وللصائم أن يأكل ويشرب حتى يتبين له

الخيط الأبيض من الخيط الأسود – أي السحر – من الفجر . ثم إذا أتم صومه إلى غروب الشمس ، فعليه ان يفطر على الفور . ثم إن الله تعالى وان كان يفرح بعبده كثيراً إذا صام صوم التطوع بعد صيام شهر رمضان المكتوب ، ولكنه لا يحب منه أبداً أن يواصل في صومه وينهك بدنه ويقعد عن أعمال الدنيا .

وكذلك ما قرر الاسلام إلا أزهد مقدار ممكن من المال لابتاء الزكاة ، وما فرضه إلا على الذين يملكون النصاب . فمن تطوع بعد ذلك وتصدق بأكثر من ذلك في سبيل الله ، فان الله وان كان يرضى عنه ويحب عمله ويحبذ عاطفته ، ولكنه لا يريد منه ان يضحي بما عليه من حقوق نفسه وأهله ، وينفق في سبيله جميع أمواله ، ويقعد ملوماً محسوراً بين الناس ، بل يجب عليه القصد والاعتدال في هذا الباب أيضاً .

ثم انظر إلى الحج ؛ فالمعلوم في بابه ان الله تعالى لم يفترضه الا على الذين يملكون الزاد ، ويقدرون على تحمل وعثاء السفر ومشاقه . ولكن الله قد زاد للناس السهولة فيه ، فلم يفترضه على الانسان إلا مرة واحدة في طول عمره . وان كانت في الطريق الحرب او الفتنة ، أو خاف على نفسه ، فله ان يُرجيء الحج إلى ما بعد زوال تلك الفتنة . وكذلك قرر أن لا بد للانسان من رضا الوالدين إذا اراد الحج لئلا يتأذيا في غيابه لعجزهما وكبر سنهما . فيتبين من كل ذلك ان الله تعالى قد راعى كثيراً حقوق غيره في حقوقه جل شأنه .

وأكبر تضحية بالحقوق الانسانية يؤديها الانسان في الجهاد ، فان الانسان في الجهاد يضحي بنفسه وماله وبنفوس الآخرين وأموالهم ابتغاء

لمرضاة الله ، ولكن من قواعد الاسلام ومبادئه الأساسية ، كما بينا لك من قبل ، ان يُتحَمَّل الضرر الخفيف احترازاً من الضرر الشديد . فاذا تفكرت في هذا المبدأ وعرفته ، وجدت ان قتل بضع مئات أو ألوف من أفراد البشر ، أهون ضرراً بالنسبة إلى أن تعلو في الأرض كلمة الباطل بازاء الحق ، ويُغلب دين الله على أمره بازاء قوى الكفر والشرك والالحاد ، ويعم في الارض الضلال والاباحية والفوضى . فاحترازاً من هذا الضرر الشديد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتحملوا في سبيله وابتغاء وجهه ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم من الضرر الخفيف . ومع ذلك أمرهم ألاّ يقتلوا إلا نفساً لابد من قتلها ، ولا يعتدوا على العجزة والنساء والأطفال والجرحى والمرضى ، ولا يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم حماية لباطلهم ، ولا يعثوا في أرض العدو مفسدين من غير ما حاجة ولا سبب ، وأن يعدلوا بين الاعداء إذا فتحوا بلادهم وانتصروا عليهم ، ويوفوا بكل ما يعاهدونهم عليه ، ولا سبيل لهم عليهم إذا كفوا أيديهم وأمسكوا عن معاداة الحق ومخالفته ومناصرة الباطل . فيدل كل ذلك ، على أن الله لم يُجِزْ لأداء حقه ، إلا تلك التضحية بالحقوق الانسانية التي لابد منها .

حقوق النفس :

ولك أن تتناول الآن القسم الثاني مما على الانسان من الحقوق ، وهي حقوق نفسه .

ولعل العجب يأخذك إذا قلت لك أن الانسان يظلم نفسه أكثر مما يظلم غيره ، لأن كل إنسان يحس ويحسب أن نفسه أحب إليه من غيره ،

ولا أرى أحداً يقر بأنه عدو لنفسه . لكنك إذا تدبرت هذا الأمر قليلاً، تبينت لك حقيقته .

من أبرز مواطن الضعف التي فطر عليها الانسان ، أنه إذا غلبته شهوة من الشهوات ، انقاد لها كل الانقياد ، ولا يبالي بما يصاب لأجلها من الضرر في نفسه ، سواء أكان يشعر بذلك او لا يشعر . ترى رجلاً قد افتتن بالسُكْر ، يعمى في سبيله ويتحمل لأجله المضرات الفادحة في صحته ونفسه وماله وعرضه . وترى رجلا غيره قد أولع بلذة الطعام ، يأكل كل مايجد من نافع أو غير نافع ، ويعرض نفسه للهلاك في سبيله . وترى رجلا ثالثاً صار عبداً لشهواته النفسانية ، يأتي بأعمال تجره إلى الهلاك جراً . وترى رجلاً رابعاً قد أهمّته نجاة نفسه ، فانقطع الى تزكية روحه وترقيتها ، يناصب نفسَه العداء ، ويريد أن يدوس كل ما تتطلع اليه من اللذائذ والشهوات ، ويأبى أن يحقق حاجاتها ، ويجتنب الزواج ، ويأنف الأكل والشراب ، ويجانف اللباس ويبغضه ، حتى انه لا يكاد يرضى بالتنفس في هذه الدنيا المليئة بالمآثم في نظره ، فيأوي الى الغابات والكهوف ويظن ان هذه الدنيا ما بُنيت له .

هذه أمثلة قليلة لتطرف الانسان في هذه الدنيا ، وإلا ففي حياته صور عديدة لهذا التطرف ، نشاهدها بين كل آونة وأخرى .

وبما أن الشريعة الاسلامية تريد فلاح الانسان وسعادته ، فهي تنبهه الى الحقيقة الثابتة القائلة : « ان لنفسك عليك حقاً » . وهي تمنعه عن كل شيء يضره ، كالخمر والحشيش والأفيون وغيرها من الاشياء المسكرة ، وعن الميتة والدم ولحم الخنزير وغيره من الوحوش الضارية والمسمومة

والحيوانات النجسة ، فان لهذه الأشياء كلها تأثيراً سيئاً في صحة الانسان وأخلاقه وقواه العقلية والروحية ؛ وتحل له بدلا منها الاشياء المفيدة الطيبة ،وتقول له لاتحرم نفسك من التمتع بها فان لجسدك عليك حقاً .

وهي تنهاه عن العري ، وتأمره ان يتمتع بما قد أنزل الله له من الزينة في هذه الدنيا ، ويستر من جسده الاعضاء التي يعد من الوقاحة الكشف عنها .

وهي تأمره بالجد في كسب الرزق ، وتقول له لا تقبع في بيتك عاطلاً ، ولا تمدن يدك الى الناس مستجدياً جدواهم ، ولا تلفظ نفسك جوعاً ، واستخدم ما قد أنعم الله عليك من القوى ، واسع بالطرق المشروعة لنيل مـــا قد خلق الله في الارض والسماوات من الوسائل والأسباب لراحتك وتربيتك .

وهي لا تسمح أن يكبح شهوات نفسه كل الكبح ، بل تأمره بالزواج لقضاء مافي نفسه من الشهوة .

وهي تمنعه عن تذليل النفس وحرمانها من رغد العيش ومتعة الحياة ، وتقول له إنك إن كنت تريد الرقي الروحاني ، والتقرب الى الله ،والنجاة في الآخرة ، فلا حاجة لك ولا داعي الى ترك الدنيا ، فان ذكر الله تعالى في هذه الدنيا ، مع التمتع بلذاتهـا ومنافعها ، واجتناب معصيته واتباع قانونه وشريعته ، لهو أكبر وسيلة وأنجعها الى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

وهي تحرم عليه الانتحار ، وتقول له إن هذه النفس التي قد أوتيتها

إن هي الا ملك لله ، قد أودعها أمانة عندك، لتستخدمها إلى أجل مسمى، وما أوتيتها لتعبث بها وتقضي عليها بيدك .

حقوق العباد :

أمرت الشريعة الاسلامية الانسان بأداء حقوق نفسه وجسده في جانب ، وأمرته في الجانب الآخر ، ألا يؤدي هذه الحقوق على وجه يمس بحقوق غيره من عباد الله في الدنيا . فانه اذا قضى شهواته ورغباته على هذا الوجه ، نجّس نفسه وأضر بغيره . فلأجل ذلك قد حرمت الشريعة النهب والسلب والسرقة والارتشاء والخيانة والتزوير والغدر وأكل الربا ، فان المنفعة التي يكسبها الانسان بهذه الطرق ، إنما يكسبها بجلب الضرر الى غيره في حقيقة الامر . وكذلك حرمت عليه الشريعة الكذب والغيبة والنميمة والافتراء ، فان هذه الامور أيضاً تجلب الضرر الى غيره من عباد الله . وكذلك حرمت عليه القمار والميسر واليانصيب ، فان منفعته في هذه كلها ، لاتكون مبنية الا على ضرر ألوف من الناس غيره ؛ وكذلك حرمت عليه صفقات الغش والغرر وغيرها من الشؤون المالية الاخرى التي يمكن أن يصيب الضرر فيها أحدَ الفريقين دون صاحبه . وكذلك حرمت عليه القتل والافساد في الارض وإفشاء الفتنة ، فانه لايحل لاي فرد من افراد البشر ، أن يقتل غيره ، او يصيبه بنوع من الأذى ، حصولاً على امواله ، او إرواءً لغليلة في النفس . وكذلك حرمت عليه الزنا وعمل قوم لوط ، فان هذه الأعمال تفسد عليه صحته وأخلاقه في جانب ، وتؤدي الى تفشي الاباحة والوقاحة والاستهتار في المجتمع في الجانب الآخر ، وتفضي به

اخيراً الى الأمراض الخبيثة، وتفسد فيه الأنسال ، وتحدث الفتن ، وتخل بالعلائق الانسانية ، وتزعزع قواعد الحضارة والمدنية .

هذه قيود وضعتها الشريعة الاسلامية على الحياة الانسانية، لئلا يسلب الانسان حقوق غيره ، او يبخس منها شيئاً ،أداءً لما عليه من حقوق نفسه وجسده . ولكنه لايكفي لترقية المدنية الانسانية وإسعادها ،ألاّ يصيب الانسان غيره بشيء من الضرر ، بل لابد لهـذا الغرض في الوقت نفسه أن تكون علائق الناس وصلاتهم فيما بينهم ، قائمة على وجه يجعلهم جميعاً متعاونين على الخير ، متناصرين على المصالح الاجتماعية ، فيما يلي نذكر لك خلاصة ماوضعت الشريعة الاسلامية من القوانين لهذا الغرض :

أ ـ إن العلائق البشرية تبتديء بحياة الأسرة ؛ فلك ان تنظر نظرة في حياة الاسرة قبل غيرهـا . وما الاسرة في حقيقـــة الامر إلا ذلك المجموع الذي يضم الزوجين وأولادهما . فالذي يضع عليه الاسلام أساس الأسرة، هو أنه من واجب الزوج ان يكسب للاسرة ، ويُهيّيء لها حاجاتها ، ويدافع عن أفرادها ؛ وأنه من واجب المرأة أن تدبر شؤون المنزل بما يكسبه الزوج ، وتهيء أكبر راحة ممكنة لزوجها وأولادها ، وتعنى بتربية الاولاد؛ وانه من واجب الاولاد ، ان يطيعوا أبويهم ويجلوهما ويخدموهما اذا كبروا. ولأجل ان يبقى نظام الاسرة سائراً على الخير والرشد والصلاح ، فقد اختار الاسلام تدبيرين ، أولهما أن جعل الزوج والأب حاكماً على الاسرة ناظراً لشؤونها ، فانه كما لا يمكن ان يصلح نظام بلدة من البلدان ويسير أمرها بدون حاكم قائم على شؤونها ، أو أن يسير نظام مدرسة من المدارس بدون رئيسها ، كذلك من المستحيل

أن يصلح ويسير نظام الأسرة بدون من يكون حاكماً عليها ناظراً لشؤونها ، ولا بد أن تعم الفوضى والاضطراب في أسرة يكون كل فرد من أفرادها مستقلاً برأيه ، غير مسؤول عن شيء من أعماله ، وأن ينعدم فيها الهناء والطمأنينة والسكينة . ولا بد لازالة هذه المفاسد ، أن يكون للاسرة حاكم قوام على شؤونها ، وانما الرجل هو الذي يمكن أن يكونه ، فانه هو المسؤول عن تربية أهل البيت وحمايتهم .

والتدبير الثاني ، أنه قد أمر المرأة ، بعد ما ألقى على كاهل الرجل تبعة ما في خارج البيت من الشؤون والمعاملات ، ألا تخرج من المنزل بدون حاجة تعرض لها . وقد أعفيت لأجل ذلك من المسؤولية عما في خارج المنزل من الشؤون ، لتقوم بواجباتها في داخل المنزل حق القيام بكل هدوء وطمأنينة ، ولا يختل نظام المنزل وتربية الأولاد بخروجها من البيت . ولكن ليس معنى ذلك ان المرأة لا يجوز لها أبداً أن تخرج من البيت ، بل قد أذن لها بالخروج منه اذا ما عرضت لها الحاجة الى ذلك ، وإنما تريد الشريعة أن يكون البيت هو الدائرة الحقيقية لواجباتها ، ولا تصرف كل ما أوتيت من القوة والذكاء إلا في إصلاح شأن البيت .

وبقربات الدم وعلائق التزاوج تتسع دائرة الاسرة ؛ فالذين يتصلون في ما بينهم في هذه الدائرة ، قد قررت لاصلاح ذات بينهم وجعلهم متساندين متناصرين فيما بينهم ، قواعد مختلفة مبنية على الحكم البالغة . من هذه القواعد :

١ ـ حرمت الشريعة بعض الذين يتعاشرون فيما بينهم مختلطين من الرجال والنساء على بعض ، كالأم وابنها ، والاب وبنته ، وزوج الأم

وربيبته ، وزوجة الأب وابن زوجها ، والأخ وأخته بالرحم وبالرضاعة ، والعم وبنت أخيه ، والعمة وابن أخيها ، والخال وبنت اخته ، والخالة وابن أخيها ، وام المرأة وزوج ابنتها ، وأبي الزوج وامرأة ابنه . ومن الفوائد الكثيرة لتحريمها ، ان أمثال هؤلاء الرجال والنساء تبقى علاقتهم طاهرة نقية ، وهم يختلطون فيما بينهم بكل حب ومودة وإخلاص ، من غير كلفة ولا ارتياب .

٢ – وقد أحل الاسلام بعد هذه العلائق ، علاقة الزواج بين أفراد الاسرة الآخرين ، ليزدادوا قرابة على قرابتهم وحباً على حبهم . ان الذين يعرف بعضهم عادات بعض وطباعهم وخصالهم ، تكون علاقة الزواج بينهم أكثر نجاحاً منها بين الذين لا يتعارفون في ما بينهم ؛ وكثيراً ماتنشأ في التزاوج بين الاجانب ، صور الخصومة وعدم التوافق . ولاجل ذلك قد آثر الاسلام ذوي الكفء على غيرهم للزواج .

٣ – وفي الأسرة الغني والفقير ، وذو اليسرة وذو العسرة ، لذا نص الاسلام على أن أكبر ماعلى الانسان من حقوق العباد هو لذوي قرباه ، وذلك مايقال له « صلة الرحم » في الشريعة . وقد تأكد وتكرر ذكر صلة الرحم في القرآن والسنة ، واعتبر قطعها من الكبائر . فان نزلت نازلة بذي عسرة ، فمن واجب الذين يجدون سعة في أموالهم من أقاربه ، أن يغيثوه ويمدوا اليه يد المعونة . كما ان حق الاقرباء في الصدقة قد أُوثر على حق غيرهم .

٤ – وقد وضع الاسلام قانون الارث ؛ من حيث اذا مات رجل من الرجال وترك من بعده مالاً ، فلا ينبغي أن يبقى هذا المال متجمعاً

مرتكزاً في محل واحد ، بل لابد ان ينال منه كل ذي قرابة نصيبه . فالابن والبنت والزوجة والزوج والاب والام والاخ والاخت أقرب ذوي الحق للانسان ، ولذا بينت الشريعة أنصبتهم في القرابة قبل أن تبين حقوق غيرهم . فان لم يكونوا موجودين مثلا ، ينال النصيب كلُّ من يليهم في القرابة ؛ وهكذا تتوزع ثروة الرجل الواحد بين كثير من ذوي قرباه ، ويتمتعون بها جميعاً بعد موته ، فقانون الاسلام هذا لانظير له في قوانين العالم القديمة ولا الحديثة ، وان كانت بعض الامم قد بدأت اليوم في الدنيا تترسم خطا الاسلام في هذا القانون ؛ ولكن من دواعي الاسف أن المسلمين أنفسهم شرعوا في مخالفته بجهلهم وسفاهتهم ، وقد عم في المسلمين في أكثر نواحي بلادنا - في قرانا خاصة - مرض حرمان البنات من الميراث ، مما هو ظلم شنيع ، ومخالفة لأحكام القرآن الصريحة الواضحة .

ب - وبعد علائق الأسرة يتصل الانسان بأصدقائه ، وجيرانه ، وأهل حيّه ، وأهل بلدته ، والذين قد تعرض له الشؤون المختلفة معهم . وقد أمر الاسلام أن عاملوا هؤلاء جميعاً بالصدق والعدل وحسن الخلق ، ولا تؤذوا منهم أحداً واجتنبوا فحش القول وسوء الكلام معهم ، وتناصروا فيما بينكم ، وعودوا مرضاكم ، واتبعوا جنائز موتاكم ، وإذا أصيب منكم أحد بمصيبة فواسوه ، وأعينوا الفقراء والمحتاجين والعجزة فيكم سراً وخفية ، وتعهدوا اليتامى والأيامى منكم بالعطف عليهم ، وأطعموا الجائع واكسوا العاري ، وانصروا العاطل حتى يجد لنفسه المكسب . واذا كان الله قد آتاكم من فضله ، فلا تنفقوه ولا تسرفوا به

في بذخكم وترفكم . وقد حرّمت الشريعة عليكم أن تأكلوا وتشربوا في أواني الذهب والفضة ، وتتزينوا بالملابس الحريرية ، وتضيّعوا المال في مواضع البذخ والترف . كل ذلك لان الثروة التي يمكن أن يتمتع بها مئات وألوف من عباد الله ، لاينبغي أن يتمتع ويرفل بها فرد واحد كيف مايشاء وتشاء شهواته ؛ فانه من الظلم أن تبقى الاموال التي يمكن أن يمسك بها ألوف من عباد الله رمق حياتهم ، معلقة في جيدك بصورة حلية من الحلي ، او تكون زينة لمنضدتك بصورة آنية من الأواني ، أو تكون زينة تفرش بها غرفتك ، او تكون نيراناً صناعية تضيعها في الهواء . ولكن ليس معنى ذلك أن الاسلام يريد ان يسلبك كل ما عندك من الثروة ، بل إن كل ما كسبته أو ورثته من أبويك من الأموال ، لك ومن حقك المشروع ، وأنت مستحق أن تتنعم بثروتك ، ويجوز أن ترى في ملبسك ومأكلك ومنزلك ومركبك آثار نعمة الله ، ولكن الغرض المقصود من وراء تعاليم الاسلام أن تعيش عيشة طيبة مقتصدة ، ولا تكثر من كمالياتك ، وان ترعى في كل ما آتاك الله حقوق ذوي قرباك وأصدقائك وجيرانك وأبناء وطنك وأبناء أمتك وابناء آدم جميعاً .

ج — ولك أن تخرج الآن من هذه الدوائر الضيقة ، وتنظر في الدائرة الواسعة التي تشتمل على مسلمي العالم جميعاً . وقد وضع الاسلام في هذه الدائرة من القوانين والضوابط ، ما يجعل المسلمين جميعاً متعاونين متناصرين في مابينهم على الخير والبر والتقوى ، ولا يسمح للسيئات والمنكرات في حدود الامكان بأن ترفع رأسها في الارض . وفيما يلي نشير الى بعض هذه القوانين :

١ ــ امر الاسلام ، حفظاً للأخلاق القومية الاجتماعية ، بألا يختلط الذين لا يمت بعضهم إلى بعض بالصلات المحرمة من الرجال والنساء فيما بينهم بصورة حرة ، ولتكن للنساء بيئة غير بيئة الرجال ، ولهن أن يصرفن معظم همهن في القيام بواجبات حياة الاسرة ، وان دعتهن الحاجة الى الخروج من بيوتهن فلا يخرجن متزينات متبرجات ، وليخرجن بثلابسهن البسيطة ، وليسترن أجسامهن ، وليسترن وجوههن وأيديهن أيضاً ما لم تدعهن الى الكشف عنها حاجة شديدة ، وليكشفن عنها لقضاء هذه الحاجة فقط . ومن جهة أخرى أمر الاسلام الرجال باجتناب النظر الى نساء غير نسائهن ، وإذا وقع نظرهم عليهن من غير قصد ، فليصرفوه عنهن ، ولا يعودوا اليه مرة أخرى ، فإن في ذلك مايعيب أخلاقهم . وان حاولوا مخالطتهن ، فهو أشد عيباً لهم . ومن واجب كل رجل ــ وكل امرأة ــ أن يحافظ على أخلاقه ، ولا يترك المجال لينشأ في قلبه ويخطر ببـــاله ميل ولو خفيف الى قضاء شهواته النفسانية ، بالخروج عن دائرة الزواج المشروع ، فضلاً ان يحاول ذلك ويسعى وراءه سعياً .

٢ ــ وقد نهى الاسلام لحفظ الأخلاق القومية ، أن يكشف الرجل عما بين سرته وركبتيه ، وأن تكشف المرأة ما دون الوجه واليدين من سائر أعضاء جسدها ، ولا لقريب من أقاربها الأدنين ، وهذا ما يقال له « الستر » في الشريعة ، ومن واجب كل رجل وامرأة أن يحافظ عليه . وقد أراد الاسلام بذلك ان تنشأ في الناس مادة الحياء ، ولا تشيع بينهم الفواحش والمنكرات ، التي تجر صاحبها اخيراً الى الاباحية والانحلال الخلقي .

٣ ــ لا يحب الاسلام من أعمال الطرب واللهو ما كان مفسداً الأخلاق

الناس ، ومنعشاً لشهواتهم السافلة ، ومضيعاً لأوقاتهم وصحتهم وأموالهم. ولا شك أن اللهو شيء ضروري في حـــد ذاته، ولا بدّ منه مع العمل والجد لتنشئة روح الحياة وقوة العمل في الانسان ، ولكن ينبغي ان يكون لهواً ينشيء النشاط ، ويرطب الروح ، ولا يكون لهواً ينغص الروح ويكثفها . أما أعمال الطرب واللهو السافلة التي يشاهد فيها ألوف من الافراد معاً الحوادث المفروضة لركوب الجرائم ، والمناظر المتصنعة للاباحية والانحلال الخلقي ، فان هي الا مما يفسد أخلاق الأمم وعاداتها ، وإن كانت جميلة المنظر تسر الناس في ظاهر الأمر .

٤ ـ وللمحافظة على وحدة المسلمين وسعادتهم القومية أمرهم الاسلام أمراً مؤكداً أن يجتنبوا التخالف فيما بينهم، ويبتعدوا عن دواعي التحزب والتفرق . فان اختلفوا في أمر من أمورهم ، فليردوه الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكل إخلاص وصفاء نية ، ولكن اذا لم يجتمعوا في بابه على شيء ، فليكلوا أمرهم الى الله ، ولا يتنازعوا في ما بينهم ، وليتعاونوا على أعمال الفلاح والسعادة الجماعية ، ويطيعوا أولي الامر منهم ، ويبتعدوا عن رجال الشر والفتنة ، ولا يوهنوا قوتهم ، ولا يفضحوا أمتهم بالحروب الداخلية في ما بينهم .

٥ ـ وقد أذن للمسلمين أن يتلقوا العلوم والفنون ، ويتعلموا الطرق النافعة من غير المسلمين ، ولكنهم نهوا عن التشبه بهم في حياتهم ، فان الامة لاتتشبه بغيرها ، إلا إذا كانت معترفة لنفسها بالذل والهوان والضعة ، وللأخرى بالسبق والعلو والرقي . وهذا من أقذر أنواع العبودية ، وهو اعتراف سافر بالانكسار والانحطاط ، ومن نتائجه اللازمة أن تنقرض

مدنية الأمة المتشبهة المحتذية . ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ المسلمين نهياً شديداً عن اتباع الامم الاجنبية واختيار مدنيتهم . ومما يفهمه كل من أوتي قليلاً من العقل أن قوة كل أمة لاتقوم على زيها ، ولا على طراز حياتها ، وإنما تقوم على مالها من العلوم وجودة التنظيم وقوة العمل . فمن كان يريد القوة والكمال والرقي ، فليتلق عن الامم الاجنبية ما تحصل به الأمم على أسباب قوتها ورقيها وكمالها ، ولا يميلن إلى ماتتذال به الأمم ، وتنضم الى أمم أجنبية ، وتقضي على حيويتها ومقوماتها أخيراً .

وقد نهي المسلمون أن يعاملوا غير المسلمين بالعصبية وضيق النظر ، وأن يسبّوا آلهتهم ويطعنوا في كبرائهم ويهينوا دياناتهم . وكذلك نهوا عن أن يبدؤوهم بالمخاصمة . فما دام غير المسلمين يريدون المصالحة والمسالمة مع المسلمين ، ولا يتعدّون على حقوقهم ، فمن واجبهم أن يعاملوهم بالمصالحة والمسالمة . إن مما يوجبه علينا شرفنا الاسلامي ، أن نعامل غيرنا بأعلى ما يمكن من عواطف المحبة والمواساة الانسانية والاخلاق العالية ، ومما ينافي أحكام الاسلام وفطرة المسلم ، أن نعامل غيرنا بالعصبية وسوء الخلق والظلم وضيق النظر ، فانه ما أخرج المسلم للناس إلا ليكون لهم أسوة يتأسون بها في حسن الاخلاق والشرف وسعة الصدر والصلاح ، وليجلب قلوبهم بمبادئه الطاهرة المبنية على الحق والعدل .

حقوق سائر المخلوقات :

هذا ونريد أن نبين لك الآن النوع الرابع من الحقوق :

إن الله قد فضل الانسان على كثير من مخلوقاته ، وأذن له أن يتصرف

فيها ، ويخضعها بقوته ، ويستخدمها وينتفع منها فيما يريد. وذلك جزء من حقه المشروع ، باعتباره أفضل خلق الله في الارض . ولكن بإزاء كل ذلك رتب الله على الانسان حقوقاً لهذه المخلوقات . فمنها ألاّ يضيعها أو يضرها أو يؤذيها من غير حاجة شديدة ، وإذا ضرّها فعليه ان يضرها بما لا يرى لنفسه بدأ منه ، ويختار لاستخدامها والتمتع بها أحسن الطرق وأعدلها .

وقد فاضت الشريعة الاسلامية بمثل هذه الاحكام المتواتوة ؛ فما أذنَ للانسان أن يقتل البهائم الا للغذاء او اتقاءً المضرة ، وقد نُهي نهياً شديداً أن يقتلها من غير حاجة على سبيل اللهو والطرب مثلاً . وقد وضع لقتل البهائم المأكولة طريق « الذبح » ، الذي هو أحسن طريق لأخذ اللحم النافع منها . وكل طريق دون طريق الذبح ، ان كان أقل منه إيذاءً للبهيمة ، فانه يُضيع كثيراً من فوائد اللحم ، وان كان أكثر منه حفظاً لفوائد اللحم ، فانه أكثر منه إيذاءً للبهيمة . والاسلام يتجنب هاتين الناحيتين . ونهى نهياً شديداً عن قتل البهائم بالقسوة والايذاء . وكذلك ما أذن الاسلام بقتل الوحوش الضارية والحشرات السامة ، إلا لأن النفس البشرية أجل قدراً واكثر ثمناً من حياة هذه الوحوش والحشرات ، ومع ذلك فهو لا يبيح قتلها بالتعذيب والايذاء . وكذلك نهى الاسلام نهياً شديداً عن إجاعة الحيوانات التي نستخدم ظهورها في الركوب أو حمل الأثقال ، وعن تكليفها فوق طاقتها وعن ضربها بقسوة . وكذلك كره الاسلام ان نحبس الطيور من غير حاجة ، بل لا يكاد الاسلام يرضى أن نصيب الاشجار فضلاً عن الحيوانات ، بشيء من الضرر ، فلنا أن نقطف أزهارها وأثمارها ، ولكن لا يحق لنا أن نبيدها أو نقلعها من غير

حاجة . بل لا يجيز الاسلام فضلاً عن النباتات ذات الحياة ، أن نضيّع شيئاً لا حياة فيه . فقد نهى عن صب الماء وإضاعته بدون حاجة .

الشريعة العالمية الدائمة :

كلّ ما بيناه لك آنفاً انما هو خلاصة موجزة لأحكام وقوانين تلك الشريعة البيضاء ، التي أُرسل بها نبينا محمد ﷺ إلى العالمين الى أبد الآبدين. ولم يُفرّق بين الانسان والانسان في هذه الشريعة شيء غير العقيدة والعمل. والحق ان جميع الشرائع والديانات التي قد فُرّق فيها بين الانسان والانسان ، بناءً على النسل أو الوطن او اللون ، لايمكن أن تكون شرائع عالمية ، فانه من المستحيل طبعاً أن يصبح فرد من هذا النسل فرداً من ذلك النسل ، كما لايمكن لأهل الارض أن ينكمشوا جميعاً ويحددوا أنفسهم في أرض وطن خاص ، كما لايمكن ان يتغير سواد الحبشي أو صفرة الصيني أو بياض الافرنجي عن فطرته ، فالظاهر ان مثل هذه الديانات لاتنشأ ولا تعيش الا في أمة خاصة من الامم . وبازائها جمعاء ، جاء الاسلام بشريعة عالمية ، يمكن لكل من آمن بعقيدتها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، أن يدخل في الامة المسلمة ، ويتمتع فيها بنفس الحقوق التي يتمتع بها سائر المسلمين ، فانه لا عبرة في هذه الشريعة بالنسل أو اللغة أو الوطن او اللون .

ثم إن هذه الشريعة شريعة دائمة ، ليست قوانينها مبنية على أعراف أمة خاصة أو عوائد زمن محدود ، بل هي مبنية على مبدإ الفطرة التي فطر عليها الانسان . ولأن هذه الفطرة قائمة في كل زمان أو حال، ينبغي أن تبقى هذه القوانين التي بُنيت عليها قائمة في كل زمان أو حال كذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرست

	الصفحات
تقديم	٣ - ٥
الفصل الاول : الاسلام	٦ - ٢١
لماذا سمي الدين بالاسلام ـ معنى كلمة الاسلام ـ حقيقة الاسلام ـ حقيقة الكفر ـ مضار الكفر وعواقبه السيئة ـ فوائد الاسلام	
الفصل الثاني : الايمان والطاعة	٢٢ - ٢٩
حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة ـ معنى الايمان ـ وسيلة الحصول على العلم واليقين ـ الايمان بالغيب	
الفصل الثالث : النبوة	٣٠ - ٦٠
حقيقة النبوة ـ معرفة النبي ـ طاعة النبي ـ الحاجة إلى الايمان بالأنبياء ـ موجز تاريخ النبوة ـ نبوة محمد	

الصفحات

ﷺ ـ ثبوت النبوة المحمدية ـ ختم
النبوة ـ الدلائل على ختم النبوة...

الفصل الرابع : الايمان مفصلاً ..... ٦١ - ٩٦
الايمان بالله ـ معنى لا إله إلا الله ـ
حقيقة لا إله إلا الله ـ تأثير عقيدة
التوحيد في حياة الانسان ـ الايمان
بملائكة الله ـ الايمان بكتب الله ـ
الايمان بأنبياء الله ـ الايمان باليوم
الآخر ـ الحاجة الى الايمان باليوم
الآخر ـ الحاجة الى عقيدة التوحيد ـ
صدق عقيدة الآخرة ـ الكلمة الطيبة.

الفصل الخامس : العبادات..... ٩٧ - ١١٢
معنى العبادة ـ الصلاة ـ الصوم ـ
الزكاة ـ الحج ـ حماية الاسلام ....

الفصل السادس : الدين والشريعة ..... ١١٣ - ١١٩
الفرق بين الدين والشريعة ـ وسائل
معرفة أحكام الشريعة ـ الفقه ـ
التصوف .....

الصفحات

الفصل السابع : أحكام الشريعة ..... ١٢٠ - ١٤١
مبادىء الشريعة ـ الحقوق واقسامها
الاربعـــة ـ حقوق الله ـ حقوق
النفس ـ حقوق العباد ـ حقوق سائر
المخلوقات ـ الشريعة العالمية الدائمة .

ظهر منها :

آ ـ للاستاذ أبي الأعلى المودودي:

١ ـ مبادىء الاسلام « الطبعة الثانية »
٢ ـ المصطلحات الاربعة في القرآن
٣ ـ البيانات
٤ ـ اسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة
٥ ـ نظرية الاسلام الخلقية
٦ ـ الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية
٧ ـ واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم
٨ ـ نحو الدستور الاسلامي
٩ ـ الدين القيم « نفد »
١٠ ـ نظرية الاسلام السياسية
١١ ـ الجهاد في سبيل الله « نفد »
١٢ ـ منهاج الانقلاب الاسلامي
١٣ ـ الاسلام والجاهلية « نفد »
١٤ ـ معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام « نفد »
١٥ ـ نظام الحياة في الاسلام « نفد »
١٦ ـ شهادة الحق « نفد »
١٧ ـ المسألة القاديانية .

ب ـ للاستاذ مسعود الندوي:

١ ـ الاسلام ودعوته
٢ ـ الجماعة الاسلامية
٣ نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية

تحت الطبع

١ ـ مسألة ملكية الارض في الاسلام
٢ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان
٣ ـ موجز تاريخ احياء الدين وتجديده
٤ ـ الربا
٥ ـ جميع الرسائل التي نفدت .

تحت التعريب

١ ـ الحجاب
٢ ـ دعوة الدين ومنهاج القيام بها
٣ ـ تفهيم القرآن
٤ ـ الثقافة الاسلامية ومبادئها

تطلب هذه المنشورات من العنوان الآتي :

مكتبة الشباب المسلم
دمشق ـ شارع الحلبوني
ص . ب (٥٥٦)

مطبوعات

مكتبة الشباب المسلم

دراسات إسلامية	للأستاذ سيد قطب	« نفد »
خواطر	« سعيد رمضان	« من مكتبة المسلمون »
أواصر الجماعة المؤمنة	« « «	« « «
أخلاقنا الاجتماعية	للدكتور مصطفى السباعي	« من أحاديث الدعوة »
نظرية الاسلام الخلقية	للأستاذ أبي الأعلى المودودي	« ذخائر الفكر الاسلامي »
الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية	« « « «	« « « «
واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم	« « « «	« « « «
مبادىء الاسلام « الطبعة الثانية »	« « « «	« « « «

تحت الطبع

« مسألة ملكية الارض في الاسلام »

* * *

١٣٧٦/٦/٢٠ هـ
١٩٥٧/١/٢٢ م

دعوتنا

١ - دعوتنا للبشر كافة وللمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا آلهة أو أرباباً غيره .

٢ - ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالإسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ، ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق ، وأعمالهم من التناقض .

٣ - ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا إصلاحاً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً ، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

الجماعة الاسلامية بباكستان

١٢٥ قرشاً سورياً او ما يعادلها

المطبعة التعاونية بدمشق

Princeton University Library
32101 079639991